الفصل الثاني

تطور الكتابة التاريخية

(أو تاريخ التاريخ)

التاريخ يسبق مرحلة التدوين التاريخي:

لا شك أن التاريخ علم قديم يرجع إلى الوقت الذي ترك فيه الإنسان آثاره على الصخور، فالإنسان البدائي الذي عاش في الكهوف زين كهفه بتلك النقوش البدائية التي تصور حياته ليراها ويدرسها من يأتي بعده من بنيه أو عشيرته. وربما كانت تلك الصور التي حفظتها لنا كهوف الإنسان الأولى، هي أول ما دون الإنسان من تاريخه. وهذا يؤدي بنا إلى القول بأن التدوين التاريخي يسبق بكثير اهتداء الإنسان إلى الكتابة، إذ عمل الإنسان الأول على أن يصور حياته ويسجلها في تلك الصور التي يحفرها على جدران كهفه البدائي. وبالتالي نستطيع القول بأن التاريخ نفسه يسبق مرحلة التدوين التاريخي، إذ أنه قديم قدم الحياة الإنسانية على الأرض وإن لم يصل علمنا إليه إلا من ثنايا الحفريات التي تكشف كل يوم عن الجديد من حياة الإنسان الأول أو تطور الحياة على سطح الأرض. غير أن علمنا بالتاريخ لا يصل إلا إلى عدة آلاف من السنين، وهو عمر قصير إذا قيس إلى الحياة الإنسانية الطويلة.

شعوب الشرق القديم وكتابة التاريخ:

والحقيقة أن كتابة التاريخ بالمعنى المعروف اليوم كانت نادرة عند سكان

الشرق الأدنى القديم، واكتشاف الكتابة وبدء قياس الزمن جعلا من الممكن الاحتفاظ بوثائق في المعابد، وهي تحوي حوليات[1] تاريخية. وأقدم ما وصلنا من تلك الحوليات، هو ما كتبه المصريون والبابليون والآشوريون والعبرانيون، وكانت تتضمن ذكر الخوارق المحضة (كظهور مذنبات، ونتاج بقر ثنائية الرؤوس)، وحكايات تدور حول حوادث الآلهة والأبطال، وبذلك لم يكن التاريخ في تلك الأيام الأولى سوى ضرب من الميثولوجيا أو قصص أساطير الأولين.

ومما يجدر ذكره أن الملاحظات اليسيرة عن مغامرات الفراعنة المصريين والقوائم القليلة لأسماء الملوك التي حفظت، كان مبعثها جمعياً الرغبة في إكبار شأن الفرعون الحاكم وذكر أحداث حياته. وأخذت الكتابة التاريخية في بابل صورة النقوش المرسومة على المباني. وظهرت عند الآشوريين وثائق حوليات ملكية في تسلسل حول مغامرات الحكام في الحرب والصيد والقيام ببناء بعض القصور. ولم يظهر أثر للحاسة الناقدة في هذا التسجيل البدائي لتاريخ. وكان الهدف المقصود من هذه النقوش هو تمجيد الملك الحاكم وإعلاء شأنه في نشر الأجيال التالية، ولذلك كانت الحقائق التي تهون من شأنه وتشوه ذكراه تحذف جميعها ولا يشار إليها. وتغلب على تلك الوثائق والنقوش المبالغة والتهويل والروح الدينية ونسبة المباني المشيدة للآلهة.

ويرى بارنز Barnes في كتابه " تاريخ الكتابة التاريخية " History

---

(١) Annals وهي مجرد تقييدات للحوادث المعاصرة.

of Historical Writing أن الأحوال الجوية جعلت مصر متحفاً تاريخياً حقيقياً، أو كما قال برستد Breasted " كتاباً تاريخياً ضخماً "، وساعدت على حفظ مصادر وافية وقيمة للمعلومات التاريخية في مقابر الملوك والقصور والمعابد والآثار. والحقيقة أنه لم تهتم حكومة بتدوين أخبارها مثلما اهتمت الحكومة المصرية في العصور القديمة. فقد اهتم الملوك والأمراء والعظماء بتسجيل أعمالهم ووصف مناحي الحياة السياسية والدينية والاجتماعية، وحاولوا إعطاء الخلف صورة واضحة عن حياة السلف. وكانت فلسفتهم التاريخية هي الاستعداد في هذه الحياة الدنيا للحياة الآخرة، فهذه الحياة في نظرهم ليست دار قرار ولا دار عدالة. وإذا كان المصريون قد اهتموا بتاريخهم، فقد قامت محاولات فردية من بعض ملوكهم الأقدمين لتشويه معالم تاريخ من سبقوهم، ولكن لحسن الحظ لم تكن هذه المحاولات ناجحة.

وحينما تأثرت الثقافة المصرية القديمة بالثقافة الهللينية، ظهر كاتب مصرى هللينى الثقافة في بلدة سبنيتوس Sebennytus (سمنود الحالية) على عهد بطليموس الأول (٣٠٥ - ٢٨٥ق.م) وكتب تاريخاً عن مصر القديمة استمده من مصادر مصرية قديمة، وهذا الكاتب هو الكاهن مانيتو Manetho. ولسوء الحظ ضاع مؤلفه، ولم تصل إلينا منه سوى مقدمته التي نقلها المؤرخان المسيحيان القديمان يوليوس أفريكانوس Julius Africanus وأوزبيوس Eusebius ولخصها المؤرخ اليهودي يوسيفوس Josephus. ويرى برستد أن تاريخ مانيتو قليل الأهمية لاعتماده على روايات عامية وخرافات متداولة وقتئذ خاصة بالملوك الأقدمين. وقد قسم مانيتو ملوك

مصر إلى ثلاثين أسرة ملكية، ومع أن هذا التقسيم اصطلاحي، إلا أنه ساعد كثيراً على فهم تاريخ مصر القديم. ولذا اتبع رأيه كل من خلفه من المؤرخين حتى المحدثين منهم.

والجدير بالذكر أن البابليين والآشوريين قد تقدموا على قدماء المصريين تقدماً قليلاً في جمع الوثائق التاريخية، ولكن لم يظهر بينهم مؤرخ من طراز مانيتو حتى تأثرت الحضارة البابلية بالحضارة الهللينية. فقد ظهر حين ذاك المورخ الكاهن بيروسوس Berossus الذي عاش في زمن ملك الشام أنطيوخوس الثاني (حوالي ٢٥٠ ق.م) وكتب باليونانية تاريخاً لبابل استمده من مصادر بابلية قديمة. وقد ضاع كتابه إلا نتفا يسيرة مضمنة في كتب يوسفيوس وأوزبيوس.

والملاحظ بوجه عام أن الوثائق التاريخية الخاصة بقدماء المصريين والبابليين والآشوريين لم تتجاوز أنساب الملوك، وتسجيل الحملات الحربية، والمدائح الموجهة إلى العواهل إذ إن الملابسات الاجتماعية التي مهدت لظهور هذا اللون من ألوان التاريخ الممل غير الشائق، لم تسمح بازدهار لون آخر من ألوان التاريخ أرقى مستوى وأكثر أصالة.

وتفوق الصينيون على سائر الأمم الشرقية في الأدب التاريخي، ويعلل روبرت فلنت Robert Flint ذلك بشدة إحساسهم بحقائق الحياة، وفرط احترامهم لأسلافهم، وشدة تعلقهم بالماضي، وحسن إدراكهم السياسي، واعتدالهم في إصدار الأحكام، وبعدهم عن الاسترسال مع الخيال، وتقديرهم الكبير للمعرفة، وميلهم إلى الجد في طلب العلم. والأدب الصيني حافل ضخم، وهو يشمل تاريخ أسر خاصة وملخصات حولية

ومذكرات مختلفة الأنواع وتراجم وسيراً لا يكاد يحصيها العد ومدونات تاريخية ومعاجم تاريخية زاخرة بالمعلومات، وهي تتناول شتى العصور ومختلف جوانب الحياة، ومكتوبة بأسلوب يعد شائعاً، ولكن الكتابة التاريخية برغم ذلك لم ترتفع عن مستوى الطريقة الحولية. ومع أن المؤرخين الصينيين قد بذلوا جهداً في جمع المعلومات واستقصاء الوقائع وتنسيقها، إلا أنهم لم يضعوها في موازين النقد، ولم يسبروا غوراً، ويستنبطوا دخائلها، ولم يتابعوا التطور الجوهري لأحداث التاريخ، فالتاريخ عندهم تعوزه دقة العالم، وشمول الفلسفة وإحاطتها، وهم يتناولون التاريخ باعتباره فناً قومياً نافعاً، لا باعتباره مرآة تنعكس فيها الطبيعة البشرية.

وقد عنى اليابانيون بكتابة التاريخ مثل الصينيين، ومن المسائل التي لا تزال موضع خلاف ونقاش: مسألة نشأة كتابة التاريخ اليابانية، وهل كانت نتيجة حافز قومي، أو كانت أثرا من آثار الاحتكاك بالصين؟ ويرى المتخصصون في الدراسات اليابانية من الأوروبيين أن كتابة التاريخ الياباني الصحيح لا ترجع إلى أبعد من القرن السادس قبل الميلاد.

ويعتقد بارنز Barnes أن أول سرد تاريخي متسع المجال ويحظى بنسبة عالية من الدقة، إنما يعزى إلى يهود فلسطين القديمة. ومعظم هذه الكتابات اليهودية التاريخية قد احتواها العهد القديم (أو التوراة) من الكتاب المقدس. ومما يجدر الإشارة إليه أن بعض آباء الكنيسة [1] في عهد الإمبراطورية الرومانية المتأخر قد أبدوا شكوكهم في صحة أفكار معينة

(١) هم الذين حاولوا منذ بدء المسيحية حتى القرن التاسع أن يدافعوا عن الدين المسحي ضد الغارات العنيفة التي شنها الفلاسفة اليونانيون المعاصرون، أي الإفلاطنيون المحدثون، = =

تقليدية عن تأليف التوراة، ولكن أول دارس آثار مسائل على جانب كبير من الأهمية من ناحية الآراء التقليدية، كان العالم ابن عزرا الذي تحدى عام ١١٥٠م فكرة تأليف موسى للأسفار الخمسة.

وأياً ما كان الأمر، فإن أقدم محاولات اليهود للكتابة التاريخية عهداً هي المحاولة التي قام بها كتاب مجهولون بكتابة أصول الأسفار الخمسة وسفر يسوع وسفر صموئيل الأول والثاني وسفر الملوك الأول. ويقول برستد: " إن هذه الأسفار هي أقدم ما نملك من الكتابات التاريخية عند أي قوم من الأقوام، ومؤلفها المجهول هو أقدم مؤرخ وجدناه في العالم القديم "

ويلاحظ روبرت فلنت أن اليهود كانوا ينظروه إلى الأحداث من وجهة نظر دينية، وكان الله في رأيهم هو العامل المحرك الأسمى للتاريخ، وإن إرادته هي محك الحكم التاريخي، وإن مملكته هي الغاية التي يتجه إليها التطور التاريخي.

ومن ثم، فإننا نلمس في التوراة إبراز المقدرة الإلهية في حياة اليهود، ولم يكن هناك سبيل لإثبات هذه المقدرة أفضل من عرض تاريخ هذا الشعب. وقد التزم كتاب التوراه في سرد الوقائع أسلوباً شرقياً، واستعملوا التعبيرات الشرقية، واستساغوا حدود الخوارق والمداخلات الإلهية المباشرة التي تغير اتجاه الأحداث تغييراً معجزاً. ونجد في التوراة كذلك طابع التعميم، وهذا تطور عما كنا نجده في الأساطير القديمة في مصر والعراق

وكان من بينهم من آمن بالفلسفة اليونانية وبخاصة الإفلاطونية المحدثة إلى جانب إيمانه المسيحي، أو من آمن بالمسيحية من أجل إيمانه بالإفلاطونية المحدثة، أوعلى العكس.

القديم، حيث كانت الحكومة الدينية تحتفظ بطابع التخصص في قصص شعوبها وحدها، ونقصد بالتعميم تناول البشر بصفة عامة. ولعل السبب في ذلك، هو اعتقاد اليهود أن إلههم يسيطر على البشر أجمعين، فهم ينتظرون منه أن يحكم بين هؤلاء البشر وبين اليهود بالعدل والقسطاس، ولا ينتظرون منه أن يرعى مصالحهم وحدهم ضد غيرهم من البشر. وجملة القول أن الفرق بين القصص البابلي والقصص العبري، هو أن الآخر قد اتجه إلى سلالة البشر، بينما كان الأول متجهاً إلى سلالة الآلهة.

الإغريق وكتابة التاريخ:

إن الرأي القائل بأن أول كتابة تاريخية ذات شأن ظهرت عند الإغريق كانت في الأشعار المنسوبة إلى هوميروس Homerus ، إنما هو رأي له أساس من الواقع. ولا تزال شخصية هوميروس يحوطها الغموض والتضارب، وموطنه غير محدود، لأن عدداً كبيراً من المدن الإغريقية - خاصة في أيونيا - ادعت أنه مسقط رأسه. ويرجح العلماء أنه قد يكون قد عاش حوالي منتصف القرن الثامن ق.م في جزيرة خيوس المتاخمة للشاطئ الآسيوي. وقد نسب التراث الإغريقي إلى هوميروس تأليف الأوديسا مثلما نسب إليه الإلياذة، بالرغم من الفارق الزمني الشاسع الذي يفصل بين الملحمتين، الأمر الذي يعكسه الاختلاف في طبيعة المجتمع وفي العادات والأسلوب اللغوي، مما يلقي ظلالاً من الشك على نسبة الأوديسا إلى هوميورس.

ومهما كان الأمر، فقد عنى هوميروس أشد العناية بتمجيد البطولة والأبطال والإشادة بما كان لأبطال الإغريق من بلاء في الحروب، ويتضمن

شعره القصصي معلومات وافرة عن المجتمع اليوناني والثقافة اليونانية. ويمكن تكوين صورة واضحة لحضارة عصره من الاطلاع على أشعاره.

وفي القرن السادس قبل الميلاد بدأ الإغريق يحررون العقل البشري من سلطان الخرافة، وتلمسوا العلل لظواهر طبيعية نسبت إلى نزوات الآلهة وأهوائها. فقد تنبأ تأليس الميليتي[1] Thales of Miletus (٦٤٠ - ٥٤٦ ق.م) بكسوف الشمس في عام ٥٨٥ ق.م وصحت نبوءته، فكان ذلك إيذاناً بافتتاح عصر جديد في تاريخ تحرر العقل البشري. ثم جاء هكتايوس Hecataeus الميليتي الذي ولد حوالي عام ٥٤٦ق.م، وفصل بن الحقيقة والأسطورة في تايخه لنشأة الإغريق، وكان يقول: " لست أثبت هنا إلا الحكاية التي أعتقد صحتها، فإن أساطير اليونان كثيرة، وهي عندي حديث خرافة ".

ولما جاء هيردوت Herodotus (حوالي ٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م)، الذي لقب " بأبي التاريخ "، والذي يعتبر أول المؤرخين الإغريق على الإطلاق، كتب كتبه التسعة، وأطلق عليها اسم " التواريخ "، وهي تحكي قصة الحروب بين الفرس والإغريق. وقال هيردوت في مقدمة هذه الكتب: " إنه يدون تاريخه حتى لا يطمس الزمن أعمال الرجال، وحتى لا تبقى الإنجازات الرائعة دون تمجيد أو إعجاب، سواء في ذلك منجزات الإغريق أو مآثر المتبربرين ". وهذه العبارة تدل على أن الإغريق قد أدركوا أن التاريخ علم، وبالتالي فلابد أن يتناول أعمال الإنسان ويمجدها.

---

(١) فيلسوف يوناني قديم، عاش في بلدة ميليتوس الواقعة على ساحل آسيا الصغرى الغربي، وزار مصر وتعلم من كهنتها علم الهندسة.

وكان هيردوت رحالة مطبوعاً على حب الاستطلاع والحرص على التزود من المعرفة، وكان يسأل ويستفسر ويجمع المعلومات والأخبار بمختلف الوسائل والسبل، ويحاول أن يتعرف على العادات والتقاليد والعقائد والأديان والقوانين والنظم، ولا يكاد يفلت من اهتمامه الفاحص ونظرته الشاملة شيء، وبقوة عبقريته استطاع أن يضمن كتابه كل ما رآه بعينه وسمعه بأذنيه في أسلوب جذاب وعرض شائق، مما جعل كتبه التسعة من طرائف كتب التاريخ الخالدة. وإذا كان قد أخذ عليه تقصيره في وصف المعارك الحربية، وقلة عنايته في تحقيق تفاصيل المعارك التي دارت بين الفرس والإغريق، إلا أنه كان من مزاياه البارزة أن عاطفته القومية لم تتغلب على أحكامه، وأنه أنصف الفرس وأقر لهم بالشجاعة والإقدام. وقد عرضه ذلك لنقد الإغريق الشديدي التعصب لقوميتهم.

وكانت الحرب الفارسية اليونانية في رأي هيردوت تمثل تصادم طرازين من طرز الحضارة، وهما الحضارة الهللينية والحضارة الشرقية، ولذلك عمد إلى تحليل عناصر هاتين الحضارتين، مما دعاه إلى وصف أحوال سكان الجانب الغربي من البحر المتوسط والعالم الآسيوي في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد وصفاً شائقاً ممتعاً، تناول فيه الأحوال الاجتماعية والثقافية. يمتاز وصفه بالنزاهة التامة والتخلص من التعصب الجنسي أو الإقليمي. وقد اتهم بأنه كان فريسة لسرعة التصديق وإلقاء الكلام على عواهنه. ولكن البحوث الأثرية الحديثة أثبتت صدق الكثير من قصصه وأوصافه الإخبارية.

ويأتي بعد هيردوت المؤرخ ثوكيديديس Thucydided (حوالي ٤٧١ - ٤٠١ ق.م)، وهو ثالث مشاهير مؤرخي الإغريق، والذي كتب في مقدمته عن " الحروب البلوبونيزية " يقول : " إنه يكتب من أجل الفائدة التي يمكن أن نحصل عليها من معرفة حقائق الماضي، ومن ثم نضع مقاييس سليمة للأحداث المتشابهة التي يمكن أن تقع مستقبلاً ترتيباً على الطبيعة المشتركة بين البشر " .

وقد تناول ثوكيديديس التاريخ بطريقة مخالفة لطريقة هيردوت، فاستند إلى الوثائق في تفسير الأحداث، وآثر الجدية في البحث على ترصيع كتابه بالقصص المسلية والطرائف الممتعة، وتشدد في استبعاد الأساطير والخرافات التي كان هيردوت يميل إلى الإكثار منها ويجد متعة في روايتها . ووضع ثيوكيديديس بذلك حداً فاصلاً في كتابة التاريخ بين المنهج القصصي الملحمي والتأثير بالاعتقاد بما فوق الطبيعة وبين الكتابة التاريخية التي تقوم على تمحيص الحقائق واستقصاء الأسباب المعقولة للأحداث والعلل الدنيوية، وأعرض عن الاستطرادات التي كان هيردوت كثيراً ما يشبع رغبته بانتزاع المناسبات وتصيد الأسباب لينجرف إليها وينغمس فيها .

ولقد أظهر ثوكيديديس أن أهمية الكتب التاريخية متوقفة على دقة المعلومات وصحتها أكثر مما هي متوقفة على العرض الجذاب، ولم يكن المؤرخ الألماني الشهير ليبولد فون رانكه في أوائل القرن التاسع عشر أكثر تحمساً لتحري الحقائق في كتابة التاريخ من ثوكيديديس عند انقضاء القرن الخامس قبل الميلاد، وهو في تماسك أسلوبه واكتفائه بالتفاصيل الوثيقة الصلة بموضوعه يعد في طليعة أوائل الداعين إلى التزام المنهج العلمي في

كتابة التاريخ، وقوام هذا المذهب أن الدقة في تمحيص المادة التاريخية التي يجمعها المؤرخ هي أساس الكتابة التاريخية الحق.

وانتقد ثوكيديديس سرعة الناس إلى التصديق وعدم محاولتهم التمييز بين الصحيح وغير الصحيح، ولذلك كان يعنى عناية فائقة بنقد حقائقه فيقول: " إنني ما وصفت شيئاً رأيته أو سمعته ولم أحققه بكل دقة وعناية ". ولم يكن ثوكيديديس يكتفي بنقد الحقائق أو المراجع، وشدة العناية بفحص الوثائق والأصول، وإنما كان كذلك بارعاً في تنظيم وتنسيق المواد التي يجمعها وتفسيرها. حقيقة أنه كان ينظر إلى التاريخ من الناحية السياسية، إلا أنه كان كالسياسي الفيلسوف في ربطه بين المشكلات التاريخية والأسباب السياسية وإلمامه بالأسباب المباشرة والأسباب البعيدة، كما أنه امتاز بقدرته السيكلوجية على تفهم نفسية الأفراد والجماعات، ويتضح ذلك في قدرته على إبراز صور واضحة للشخصيات التي تحدث عنها وتحليله للرأي العام الأثيني في مواقف مختلفة.

وآخر المؤرخين الإغريق الكبار هوبوليبيوس Porybius (حوالي ٢٠٤ - ١٢٢ ق.م)، والذي كان نظير ثوكيديديس في تحري الدقة العلمية، ولو أن بعض الباحثين يرون أن بوليبيوس كان أقوى من ثوكيديديس نزعة علمية، بمعنى أنه كان أهدأ تفكيراً، وأعدل حكماً، وأقل ميلاً إلى الأسلوب الخطابي، وأشد عناية بتفسير الحاضر منه بتوجيه المستقبل. وقد قال بوليبيوس " على الكاتب أن يوجه اهتمامه إلى الظروف التي سبقت الحادث أو واكبته أو جاءت بعده؛ لأن دلالة هذه جميعاً تفوق ما يروى عن الحادث نفسه "، ثم استطرد قائلاً " نحن إذا انتزعنا من التاريخ البحث عن الأسباب

والأساليب والأهداف التي حركت الإنسان، وأغفلنا دراسة النتائج التي توخاها من عمله، والقدر الذي استطاع تحقيقه من هدفه الكلي، فإننا لا نبقي من التاريخ سوى تمارين أدبية لا عبرة فيها، ولقد يكون متعة للآذان وملهاة للأذهان لا نتيجة لها بالنسبة لمستقبل الأيام " .

ومع أن بوليبيوس إغريقي الأصل، إلا أنه قضى معظم حياته في روما، وقد مكنه ذلك من أن يكون أقرب إلى النزاهة في كتابه تاريخ الرومان والإغريق، وكان أكبر همه أن يشرح في ضوء التاريخ كيف استطاعت المدينة الرومانية المستقلة أن تصل إلى حال من الاستقرار والقوة لا تقارن بها حال المدن المستقلة في وطنه الإغريقي. وقد قام بذلك كله في سفر غزير المادة يقع في أربعين جزءاً، ضمنه قصة الفتوح الرومانية وتحليل النظام الروماني السياسي، وهو كتاب يعد نموذجاً للحكم المبرأ عن الهوى، ومن ثم جاء أسلوبه إلى حد ما فاتراً غير سلس أو مركز مثل: أسلوب هيردوت أو ثوكيديديس. وكان ذلك من دواعي أن القراء لم يقبلوا على قراءته إقبالهم على قراءة الاثنين الآخرين.

ويعد الجزء السادس من كتابه خير تحليل للمثل العليا السياسية الرومانية وأساليب الرومان في الحرب، وقد رأى أن العبقرية السياسية الرومانية قد تجلت في اتخاذ نظام للحكم يجمع بين النظام الملكي والنظام الارستقراطي والنظام الديموقراطي. وكان بوليبيوس نافذ الرأي في الحكم على السياسات، ودارساً متعمقاً للأحداث والشخصيات. والتاريخ عنده له هدف مادي، وذلك يحتم على كاتبه توخي الدقة العلمية قدر الطاقة، ويدفعه إلى محاولة إصابة كبد الحقيقة، وميزان الحقيقة هنا هو مدى تقبل العقل لها كشيء مجرد لا دخل للغيبيات فيه.

وفي هذا الصدد نرى بوليبيوس يسخر من الكتاب الذين جعلوا من هانيبال أداة مسخرة في يد إله يرشده إلى اجتياز جبال الألب ويقول فيهم : " إنهم قد قلدوا شعراء التراجيديا في أكثر المآسي التي تمثل فوق مسارحنا، فاضطروا مثلهم إلى إدخال الآلهة في حل عقدة المأساة؛ لأنهم اختاروا الأساطير موضوعا لما يكتبون، وابتعدوا عن نطاق العقل والحقيقة. وهكذا إضطروا الى الاستعانة بالأبطال والآلهة، لأنهم انطلقوا فيما يكتبون من بدايات تدخل في نطاق المستحيلات، وبالتالي لا يمكن أن تكون لها نهاية يقبلها العقل المجرد، إنهم في الواقع يعجزون عن إيجاد الخاتمة، ليلجؤوا الى الآلهة لتضع هي الخاتمة، والتاريخ غير ذلك، إنه يستند إلى الحقائق والإنسان هو الذي يصنعه " .

وعلاوة على ذلك، فقد أكد بوليبيوس قمة المعرفة الجغرافية في استجلاء حقائق التاريخ وتقلباته، والتاريخ في نظره من الدراسات النافعة، حيث ذهب إلى أن " التاريخ تعليم للفلسفة بضرب الأمثال " ، وهو مذهب عمل فيما بعد على إذاعته المؤرخ الإغريقي ديونسيوس Dionysius وغيره. وكان بوليبيوس أكثر تعمقاً من ثوكيديدس في تحليل الأسباب غير الشخصية المؤثرة في حركات التاريخ، ولو أن تفسيره كان يغلب عليه الناحية الأخلاقية أكثر من تغليب الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية.

الرومان وكتابة التاريخ:

يقرر بعض الباحثين أن الرومان لم يضيفوا للأدب التاريخي إضافات

مبتكرة، بل اتجهوا في العناية بالتاريخ مذهب الإغريق، واتخذوا من الكتاب الإغريق أمثلة وقدوة لهم في سائر نواحي الثقافة ومختلف فنون الأدب. وقد ظهر بين الرومان مؤرخون لهم مكانتهم، ولكنهم لم يبلغوا مستوى ثوكيديديس أوبوليبيوس في تحري الدقة، وإخضاع المراجع للنقد الصارم والنظر الفاحص، ولم يستطع مجاراة خير المؤرخين الإغريق أسلوباً سوى المؤرخين تيتوس ليفيوس Titus Livius (٥٩ ق.م - ١٧م) وتاكيتوس Tacitus (٥٥ - ١٢٠م).

ولقد كانت حياة ليفيوس وصلة بين عهدي الجمهورية والإمبراطورية الرومانية، أو بين العصرين الوثني والمسيحي. وكان ليفيوس هو مبتكر فكرة كتابة تاريخ روما منذ نشأتها الأولى، معتمداً على من سبقوه من المؤرخين، وعلى الجمع بين السجلات التي حفظت مراحل تاريخ روما المبكر وإدماجها كلها في مؤلف واحد. وقد تغنى ليفيوس - في أسلوب يحاكي أسلوب خطباء الإغريق - بمفاخر الجمهورية الرومانية، ودبج قصة فتوحها، وناشد أبناءها أن يحتفظوا بقوتها وحدودها، وأن يعملوا على زيادة تلك القوة ومد تلك الحدود. أما كفايته من حيث هو مؤرخ، فيلاحظ أنه كان قليل العناية في مراجعته للأصول التي يستمد منها ويعتمد عليها بتنقيتها من شوائب الخرافات وبقايا التقاليد العالقة. وما كتبه بوجه خاص عن نشأة روما لا يمكن الاعتماد عليه والأخذ به، فقد ملأه بالأساطير وأعاجيب القصص والخرافات. وحرص على التأنق في الأسلوب وتجميل العرض، ونزع في كتابته إلى تمجيد روما والإشادة بها، ليرضي كبرياء القومية، وليثير في نفوس الشبان الرومانيين الشعور القومي والحماسة الوطنية. وفضلاً عن

ذلك، فقد أباح لنفسه حرية التحدث على لسان شخصياته البارزة، وأعاد في كتابته التاريخية تدخل ما فوق الطبيعة في الأحداث العارمة، وأكثر من إظهار أثر الآلهة في سير التاريخ.

أما تاكيتوس، فهو آخر كبار المؤرخين من الرومان، وأشهرهم على الإطلاق من حيث اللغة والبيان. وعرف بقدرته الفائقة في تصوير الشخصيات، كما غلبت عليه مراعاة الدقة في تحري ما يروى من الأحداث. وأشهر كتبه التاريخية هي " الحوليات "، والتي تناول فيها تاريخ الفترة منذ وفاة القيصر أغسطس الى سنة ٦٩ ميلادية. وقد صور في حولياته بألوان بشعة ما كان يقع في قصور تيبريوس ونيرون من ضروب التهتك والبغي والقسوة والغدر، ثم قابل بين ذلك كله وبين السذاجة والمزايا التي كانت تتحلى بهاالقبائل الجرمانية المتبربرة، والتي كانت حديثة عهد بالاتصال بالإمبراطورية الرومانية.

وكان تاكيتوس في كتابته للتاريخ أقرب إلى النزعة العلمية من ليفيوس وأكثر منه عناية بتحقيق الأحداث، ولكن لم يكن له نزاهة بوليبيوس في الحكم على الحوادث، وقد أغراه بذلك تحامله على الإمبراطورية وميله إلى طريق العرض الدرامي. وكان يميل إلى النظم الجمهورية القديمة، مع علمه بأن ضعف الجمهورية كان أقوى أسباب القضاء عليها.

ومن الأمور التي نبهت تاكيتوس إلى انحطاط الرومان: ذيوع العبادة المسيحية فيهم. ولم يكن تاكيتوس طبعاً بالرجل الذي يستطيع تفهم ذلك الدين الجديد، فإنه عندما رآه ينتشر بين طبقات الأرقاء والغرباء اعتبره أقل

من أن ينزل إلى بحثه والتفكير فيه، فلما رآه يفضي بمعتنقيه إلى الامتناع من الخدمة العسكرية، والانسحاب من الحياة الاجتماعية، ورفض العبادة التكريمية للإمبراطور، لم يتحاش أن يعلن أن النصارى " أعداء الجنس الإنساني " . غير أن الدين الجديد، على الرغم مما لقيه من تحقير وما ناله من عدوان، أخذ ينتشر شيئاً فشيئاً حتى لم يجد الإمبراطور الروماني نفسه في القرن الرابع بدا من أن يدخل فيه ويعلن أنه حامي حمى الكنيسة وكبير أساقفتها .

ولقد كان الرومان بطبيعتهم ماديين تغلب عليهم النزعة النفعية، ولم يبرأ المؤرخون الرومان من هذه النزعة المادية النفعية، والتي كانت سببا في إنشاء روما لدور السجلات الرسمية التي تخضع لإشراف هيئات دينية . ومن هذه السجلات كتبت الحوليات ودونت الأحداث عاما بعد عام .

وكان المؤرخون الرومانيون يدورون في كل ما يكتبون حول محور رئيسي، هو روما ذاتها، واعتبر المؤرخ نفسه صاحب رسالة في أمته، فهو يؤدي وظيفة وطنية حين يتحدث عن أمجاد وطنه ويهدي إليها مواطنيه . وهكذا حصر المؤرخون الرومان كل اهتمامهم في روما ذاتها التي غزت شعوب الأرض واحداً بعد الآخر، دون أن تعبأ حتى بمعرفة لغات هذه الشعوب الكادحة، وركزوا اهتمامهم في التحدث عن كبار القادة ورجال السياسة .

التاريخ في أوربا العصور الوسطى:

يقول هرنشو : " إن تنصر الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧م) وظهور الكنيسة المسيحية على الوثنية الرومانية في حدود القرن الرابع

الميلادي، كان له أثر عميق في فن التأريخ، فقد تحول إلى أيدي القساوسة والرهبان، وبقي فيهم طوال العصر الوسيط، أي زهاء ألف سنة من الزمان. وكان من وراء ذلك أن غدا التاريخ خاضعاً للاهوت مسخراً له، . . . وفقد كل صفة علمية كان يتصف بها وأصبح لا يكترث بحال لما هو حق أو محتمل الوقوع، وغدا مشحونا صبأخبار الخوارق والكرامات غير معني إلا بماله صلة بالدين. . . وجملة القول أن تحول التاريخ إلى رجال الدين كان معناه محو التاريخ الصحيح من الوجود محواً دام ألف عام " .

والواقع أنه كان لانتصار المسيحية على الوثنية تأثير بعيد المدى في كتابه التاريخ وفي الأفكار التي كان يسترشد بها المؤرخون. فقد نبذت الثقافة الوثنية باعتبارها من عمل الشيطان، واعتبرت الكتابات التاريخية التي أنتجها العصر الوثني أقل مستوى من الكتابات التاريخية المقدسة التي في التوراة، وحامت الشكوك حول قيمة التفكير العقلي الذي كانت له المكانة العليا عند الإغريق، وأصبح للإيمان الديني المحل الأعلى والركن الأقوى، وأخذت كتب اليهود المقدسة مكانة الأدب القديم، وأعرض عن شعر هوميوروس ومؤلفات ثوكيديديس وبوليبيوس وليفيوس وغيرهم من مؤرخي العصر الوثني وكتابه وشعرائه. وحملت المسيحية إلى الثقافة ثروة هائلة جديدة من القصص والأحداث والحكم والأمثال المستقاة من التوراة.

ومما لا شك فيه أن المسيحية قد بدلت الفكر البشري تبديلاً بالغ العمق، بحيث غير كل الأوضاع التي شاعت في العصر الروماني، ومن بينها المنهج التاريخي، فقد كان للمسيحية فلسفتها التاريخية الخاصة بها، فحوادث هذا العالم - كما ترى - سائرة وفق نظام إلهي لتمهيد الطريق لظهور المسيح.

وعلى فكرة ظهور المسيح يتوقف تاريخ ما قبل المسيح وما بعده، فبعده تقاسي الإنسانية أنواع العذاب إلى يوم القيامة. ولقد وجدت هذه الفلسفة أحسن تعبير لها في كتاب القديس أوغسطين[1] " مدينة الله " Civitas Dei ، فالحركة التاريخية صراع بين قوى الخير وقوى الشر، وهي في معناها التاريخي الأرض صراع بين " مدينة الله " ، وهي نخبة المؤمنين بإله اليهود والمسيحيين، وبين " مدينة الشيطان " Civitas Diaboli ، وهو الاسم الذي أطلق على أشياع الوثنية المعاصرين والسابقين، وسيسفر هذا الصراع عن انتصار المدينة الأولى وهدم المدينة الأخرى.

وعلى كل حال، فقد فتح القديس أوغسطين للتاريخ آفاقاً فسيحة، إذ سمح للفكر أن يرسل نظرة إجمالية إلى مجموعة التواريخ الموجودة وإيجاد تفسير لها، فالمسيحية كما يرى ترشد معتنقها إلى تصور تاريخي للكون يبدأ بالخالق كما جاء في التوراة وينتهي بالدينونة العامة أي يوم الحشر. ومنذ أن وضع أوغسطين هذه المبادئ، لم ينس مؤرخ في الغرب أن التاريخ بمعناه الصحيح هو تاريخ البشرية كلها، وأن من يكتب تاريخ أمة واحدة إنما يصنع قطعة صغيرة من لوحة كبيرة.

ونلاحظ أن على أي تاريخ كتب على النمط المسيحي أنه يتميز بصفة العموم، فهو تاريخ عام شامل، كما أنه قدري، للإله فيه قوة مسيطرة توجه

---

(١) ولد عام ٣٤٥م وتوفي عام ٤٣٠م، وكان أبوه وثنياً وأمه مسيحية، واعتنق الدين الجديد وأصبح في عام ٣٨٦ من أبرز رجاله وكتابه. وقد نذر حياته للتوفيق بين ما جاء في تعاليم الدين الجديد وما ألفه الناس من عقائد وثنية.

الناس فيما يصنعون من أحداث. حقيقة كان التاريخ اليوناني والروماني عاماً للعالم، ولكنه ليس بالمعنى المسيحي، لأنه ينبثق من مركز جاذبية خاص به، له أسلوبه في تكييف الحوادث، فبلاد اليونان أو روما هما المركز الذي تدور من حوله الأحداث ولا تخرج عن فلكه، أما التاريخ المسيحي العام فقد نبذ فكرة وجود مركز جاذبية من هذا النوع. ثم إن التاريخ في العصر المسيحي لم يرد الأحداث لحكمة البشر، ولكن لحكمة قدرية، فالله هو الذي يهيمن على نشاط البشر ويرسم الطريق للأحداث التي سبقت في علمه. كذلك كان التاريخ في العصر المسيحي يهتم بحياة المسيح، وكثيراً ما يجعلها محور الأحداث. أما فكرة التطور والتقدم Idea of Progress فلم تظهر واضحة في العصور الوسطى، وإن كان أساسها قد وضع في الماضي الإغريقي، لأن الفكرة المنتشرة في أوروبا في ذلك الوقت كانت فكرة الخطيئة الأولى: خطيئة آدم وحواء، وأن ليس أمام الإنسانية مجال للتحسن والرقي.

ومن جهة أخرى، فقد اتسمت كتابة التاريخ في العصور الوسطى بإهمال الدور البشري فيه، وبالتالي لم يكن ثمة مجال لنقد أو تحليل. فلم يتبع المؤرخون المسيحيون طرق ثوكيديديس وبوليبيوس في التحقق والتثبت، لأن اتخاذ الموقف الناقد لما ورد في التوراة وسلوك مسلك هكتايوس بإزاء الأساطير اليونانية كان يعد خروجاً على العقيدة، ولذلك كانت الكتب الدينية تفسر تفسيرات تتضمن الإشارة إلى المعاني الخفية التي تشتمل عليها تلك الكتب الملهمة، وكان هذا الاتجاه بديلاً من التحليل النقدي

السابق اتباعه في المنهج التاريخ، واتبعت هذه الطريقة في تفسير الوثائق التاريخية. وإذا كان بعض مؤرخي العصور الوسطى قد قاموا بمحاولة للنقد، فإن هذه المحاولة كانت تستند إلى التقدير الشخصي لكل منهم دون استناد إلى منهج علمي؛ لذلك كانوا يصدقون كل ما جاء في مصادرهم.

والحق أن مؤرخي العصور الوسطى كانوا أميل إلى سرعة الاعتقاد والتصديق منهم إلى التحري والتدقيق في قبول الأخبار ورواية الأحداث. ولم يكن هناك تفريق بين الواقعي والمثالي أو الحق التاريخي والحق الشعري. وكانت الملاحم الشعرية تعد مراجع تاريخية. ولم يكن هناك ما يحول دون تزييف الأخبار، وتزوير الوثائق والأسانيد. ولم تكن هناك عناية بكشف الحقائق وإزهاق الأباطيل ما دامت الوثائق والأخبار المزيفة تخدم قضية من قضايا العصر وتؤيد معتقداً من المعتقدات الشائعة. ولما كان الرهبان هم طبقة العلماء في أوروبا العصور الوسطى، فقد كان من الطبيعي أن يصبحوا مؤرخي تلك العصور حتى القرن الخامس عشر، حين انتقلت هذه الصفة إلى رجال القانون، فأدخل هؤلاء في كتاباتهم اللمسة القانونية واستندوا إلى الصكوك والوصايا والعقود، فكان ذلك بدوره سبباً في ظهور المزيف منها، كالوصية التي زعموا أنها صدرت عن الإمبراطور قسطنطين لصالح البابا قبل رحيل الأول لبيزنطة، إذ أوصى له بملكية روما.

ولا شك أن المؤرخين الرهبان قد بذلوا جهداً في كتابة التاريخ، وكان همهم موجهاً إلى شؤون الدين وتواريخ البابوات وأخبار القديسين وما يقال من إجرائهم المعجزت أو الكرامات، وربما أشاروا في أثناء ذلك إلى بعض ما

يهم غير رجال الدين من الحوادث. ومراكز المخطوطات في مكتبات الغرب مثقلة بهذه التواريخ التي كتبها الرهبان في صمت صوامعهم على ضوء الشموع على سبيل التسلية أحياناً وقطعاً للوقت وهروباً من الملل وتقرباً إلى الله في أكثر الأحيان. ومع ذلك، فإن التعصب الديني وشدة التعلق بالأوهام والخرافات ومراعاة المصالح الكنسية المختلفة كانت تفسد عليهم أمرهم. وكانت المطامع الشخصية والولاء لبعض الجامعات والرغبة في مساندة بعض المذاهب تقف حجر عثرة في سبيل تحرير التاريخ وتقدمه. وكان حرص بعض المؤرخين على الولاء لبعض الأسر والأمراء أصحاب السيطرة والنفوذ يجعلهم أكثر اهتماماً باسترضاء السادة حماتهم، والذين يتفيئون ظل رعايتهم، منهم بالحرص على الحق التاريخي.

وعلى العموم، فقد عرفت أوروبا العصور الوسطى الحوليات Annals والتأريخ أو المدونات Chronicles ثم التراجم التاريخية Biographies. أما الحوليات فكانت شديدة الشبه بنظائرها القديمة عند قدماء المصريين والبابليين. وكانت مجرد تقييدات للحوادث المعاصرة يعلق بها على التقاويم المؤقتة لعيد الفصح. وكثير من الحوادث الواردة في حوليات العصور الوسطى ولا سيما أوائلها، من أتفه ما يكون، فهو من قبيل الزلازل والخوارق وتداول المخلفات المقدسة ونتاج خنازير سداسية القوائم وما أشبه ذلك. ثم أخذت هذه التقييدات ترتقى شيئاً فشيئاً حتى أصبحت في أواخر العصور الوسطى سجلات نفيسة لأحداث التاريخ.

أما " التآريخ " لا بد من وضع هذه العلامة لأنها هامة فكان الغرض

منها عرض الحوادث عرضاً أتم وأوفى مما في الحوليات، ومع احتفاظها بالطابع " الحولي " كان الغرض منها تلخيص تاريخ العالم منذ الخليقة إلى وقت تدوينها.

وأما التراجم التاريخية فقد تناولت سير القديسين لتكريمهم وتخليدهم وإظهار ما تحملوه من آلام في سبيل العقيدة، ولكن الحقائق كانت تتراجع كثيراً في هذه التراجم أمام المبالغات المسرفة.

الكتابة التاريخية في العهد الإسلامي:

كان العرب قبل الإسلام يوقتون بالنجوم والأهلة، ويؤرخون من الحوادث العظام والوقائع المشهورة، كعام الفيل وبناء الكعبة، حتى خلافة عمر بن الخطاب، فأمر الناس أن يؤرخوا من عام الهجرة.

أما عن التدوين التاريخي ذاته، فمن المعروف أن العرب في الجاهلية تذكروا أيامهم وأحداثهم عن طريق الرواية الشفوية في صورة أشعار وأخبار متفرقة. أما أهل اليمن، فقد نقشوا بالخط المسند على مبانيهم بعض أخبار مملكتهم، وأودعوها أديرة الحيرة وكنائسها.

ولما جاء الإسلام وقامت الدولة العربية الإسلامية وأصبحت هناك حاجة ماسة إلى معرفة سيرة الرسول الكريم وأحواله، توفر رجال على جمع أخبار السيرة وتدوينها، فكان ذلك بدء اشتغال العرب في الإسلام بالتاريخ. وأول من كتب في السيرة النبوية: عروة بن الزبير بن العوام

المتوفى عام ٩٣هـ، وأبان بن عثمان بن عفان المتوفى عام ١٠٥هـ، ووهب ابن منبه المتوفى حوالي عام ١١٠هـ. ومن أشهر من كتب في علم السيرة والمغازي: محمد بن إسحاق المتوفى عام ١٥٢هـ، وقد اختصر سيرته ابن هشام المتوفى عام ٢١٨هـ، ثم محمد بن عمر الواقدي المتوفى عام ٢٠٧هـ، وكثيرمن روايته احتواه كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد المتوفى عام ٢٣٠هـ.

وفي تلك الأثناء، امتدت أطراف الدولة الإسلامية، ووقعت الفتن العظمى والعصبية القبلية، وشاعت بين المسلمين أخبارالأمم القديمة والديانات غير الإسلامية، فتوافرت الأسباب لجمع الأخبار وتدوينها نتيجة عوامل متعددة، منها رغبة العلماء في فهم إشارات عن الأمم الغابرة وردت في الكتاب والسنة، ومنها ميل بعض الخلفاء كمعاوية والمنصور إلى الوقوف على سياسة الملوك ومكائدهم. وهذا فضلاً عن حرص الموالي على الإشادة بمجد بلادهم القديم. يضاف إلى ذلك أن تدوين الأنساب وأيام العرب، كان يسد حاجة الشعراء في مقام الفخر والهجاء وحاجة الخلافة للأنساب لأهميتها في تقدير العطاء للجند، ومن البواعث القومية على تدوين أخبار الفتوح، ورغبة ولاة الأمور في معرفة ما فتح من البلدان صلحاً وما فتح عنوة وما فتح بعهد، لأن لكل من هذه الحالات حكماً خاصاً من حيث الجزية والخراج.

لهذا كله، وجد إلى جانب السيرة نوع آخر من الرواية التاريخية، موضوعه أخبار الماضين وأحوال الجاهلية وحوادث الإسلام.

وأطلق على كل ذلك لفظ " الأخبار " ، وعلى المتخصص في روايته " أخباري " ، كما عرف المتخصص في رواية الحديث " بالمحدث " ويلاحظ الباحث النقلة من الحديث إلى الأخبار في بعض الرجال مثل ابن إسحاق والواقدي والمدائني المتوفى سنة ٢٢٥هـ. فكل منهم كان محدثاً وإخبارياً. وكذلك يلاحظ بداية التخصص في الأخبار، في مثل: محمد بن السائب الكلبي الذي اشتهر بدرايته بعلم الأنساب، وأبو مخنف الذي اهتم بالردة ووقعة الجمل وصفين وأخبار الخوارج. وفي تلك المرحلة، وجد نوع من التخصص المحلي في رواية الأخبار، فكان لكل قطر من الأقطار الإسلامية الهامة إخباريون اختصوا بجمع أخباره وتدوينها، مثل أبي مخنف الذي اختص بأمر العراق، والمدائني بأمر خراسان والهند، والواقدي بأمر الحجاز.

ويهمنا هنا أن نذكر أن التاريخ بدأ عند العرب على أنه فرع من علم الحديث، فتأثر بطريقة المحدثين في جمع الرواية التاريخية ونقدها، فكان أهل السيرة والمغازي والأخبار يجمعون مأثور الروايات ويدونونها مع إسنادها إلى مصدرها الأصلي. وهذا المصدر قد يكون شخص عدل له علم مباشر بالوقعة المروية، كأن يكون شهد أو اشترك فيها، أوأخذها من كتاب قديم، أو من بعض أهل البادية. وتلك كانت الحال في رواية أخبار الأمم القديمة والعرب قبل الإسلام، فكان النقد عندهم أو الجرح أو التعديل ذاتياً منصباً على الرواة لا موضوعياً منصباً على المرويات. واتبعوا أيضاً طريقة علماء الحديث في تدارس كتب التاريخ وتلقينها عن مؤلفيها، بالسند المتصل

قراءة وسمعاً وإجازة، بل أكثر من ذلك جمعوا الروايات ورتبوها بحسب موضوعاتها في شكل رسائل أو كتب تشبه أبواب الحديث.

وما يجدر ملاحظته أن المؤرخين سلكوا في عرض الحوادث طريقين: أولاهما وأقدمهما الترتيب على السنين بعد مقدمة في التاريخ القديم يبدؤونها عادة بذكر الطوفان أو الخليقة. ويبدو أن أول من اتبع هذه الطريقة هو الهيثم بن عدى (المتوفى سنة ٢٠٧ هـ)، ثم اتبعها من بعده الطبري ومسكويه وابن الاثير وأبو الفدا. أما الطريقة الثانية، فتشمل سوق الحوادث مساق القصة المنسوبة المرتبة على العهود، وجرى على هذه الطريقة اليعقوبي والدينوري والمسعودي.

والكتابة التاريخية عند العرب تطورت تطوراً ملحوظاً منذ أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) عندما زادت المادة التاريخية نتيجة استقرار دواوين الدولة العباسية، وبخاصة دواوين الإنشاء والجند والخراج والبريد. وأمكن للمشتغلين بالتاريخ الانتفاع بما في هذه الدواوين من معلومات، فاحتوت كتابات تواريخ القرن الثالث على عهود رسمية ومراسلات سياسية وإحصاءات للمواليد والوفيات ومعلومات عن كبار رجال الدولة من الوزراء والقادة وعمال الولايات. يضاف إلى ذلك ما شاهده ذلك العصر من نشاط حركة الترجمة من الفارسية والسريانية واليونانية واللاتينية وغيرها من اللغات. كما أن سهولة الانتقال في أنحاء الدولة الإسلامية، دفعت الكثير من طلاب العلم والمؤرخين على الرحلة في طلب الرواية ورؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها. لهذا كانت مصادر التاريخ عند العرب في القرن الثالث الهجري أربعة، هي:

١ - كتب السيرة والأخبار.

٢ - السجلات الرسمية.

٣ - المؤلفات المنقولة عن اللغات الأجنبية.

٤ - المشاهدة والمشافهة.

وعندما كثرت المادة التاريخية، اتجه كثير من العلماء والفقهاء لدراسة التاريخ والتأليف فيه، ومن ثم أخذ التاريخ مظهره الرائع على أنه من أجلّ علوم المسلمين وأعظمها شأناً. وارتفع شأن المؤرخين بين علماء الدول الإسلامية.

ومنذ القرن الثالث الهجري عندما أصبح علم التاريخ علماً مستقلاً، نلمس اتجاهات معينة لكتب التاريخ؛ فمنذ منتصف القرن الثالث أخذت الوحدة السياسية للدولة الإسلامية تتداعى، وانقسمت الدولة العباسية إلى دويلات متعددة في مشارق الأرض ومغاربها. وأدى ذلك إلى ظهور التواريخ المحلية، من ذلك كتاب " فتوح مصر والمغرب " الذي ألفه عبد الرحمن بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧١م/ وكتاب الولاة وكتاب القضاة للكندي المتوفى عام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م، وتاريخ بغداد وأعلامها للخطيب البغدادي المتوفى عام ٤٦٣هـ، وتار يخ دمشق لابن عساكر المتوفى عام ٥٧١، والبيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذاري (القرن السابع). وظلت سلسلة التواريخ العامة في اضطراد، فصنف مسكويه " تجارب الأمم "، وابن الأثير كتاب " الكامل في التاريخ "، وأبو الفدا كتاب " المختصر في أخبار البشر ".

وللمسعودي المؤرخ (أبو الحسن على بن الحسين بن علي) المتوفى سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٦م أهمية خاصة في كتابيه " مروج الذهب ومعادن الجوهر " و " التنبيه والإشراف " . فقبل المسعودي كان إذا اتفق لأحد من مؤرخي العرب أن يذكر بعض التفاصيل عن الهند والصين والترك وبعض الأمم الأوروبية، فإنه كان يستقي أخباره من مصادر ثانوية أو روايات زائفة وحكايات شعبية، فيصبح تاريخه عن هذه الأمم نسجاً من الأساطير وضروب التناقض والأخطاء الزمنية. ولم تكن المؤلفات الخاصة بالجغرافية أحسن حالاً من ذلك، إذ لا يكاد المؤلف الجغرافي يتجاوز حدود بلاد العرب وفارس وبعض الأقاليم المجاورة، حتى يدخل في ميدان الأساطير. ولما ظهر المسعودي، وكان ذا عقل راجح ومعارف عميقة، زار معظم بلاد الشرق، واستطاع أن يمدنا بمعلومات صادقة وقيمة في آن واحد من الجغرافية والتاريخ والتاريخ الطبيعي بجميع فروعه.

ولكن على الرغم من أن المسعودي جمع بين التوفيق في تحري الصدق وموهبة الملاحظة والحرص على تفنيد الأقوال الزائفة التي أتى بها سابقوه، إلا أن الناس بعده استمروا في تداول الأخطاء الخاصة بتاريخ الهند والصين والترك، وكان على الكتابة التاريخية أن تنتظر ظهور مؤرخ عظيم هو رشيد الدين فضل الله الهمذاني المتوفى سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م صاحب كتاب " جامع التواريخ " .

والمجلد الأول من كتاب جامع التواريخ وعنوانه (تاريخ غازاني) في تاريخ أقوام المغول وقبائلهم وملوكهم الذين حكموا في إيران وغيرها. وقد

عمل غازان خان على توفير مواد البحث لرشيد الدين الذي استطاع لعلمه اللغة المغولية أن يفيد من قراءة هذه المواد واستخلص منها تاريخ المغول. أما المجلد الثاني من جامع التواريخ فيمكن تقسيمه إلى قسمين: قسم يتناول تاريخ الفرس قبل الإسلام ثم التاريخ الإسلامي إلى سقوط بغداد، وقسم يتناول الشعوب والأمم التي اتصل بها المغول في تاريخهم. والمجلد الثاني كتبه رشيد الدين بناء على رغبة أولجاتيو الذي أراد أن يكتب كتاباً عن تاريخ الأمم والشعوب التي اتصلت بالمغول. وبناء على هذا التوجيه، شرح رشيد الدين في كتابه ما أمر به الخان.

وحدثنا رشيد الدين عن تصنيفه لهذا الكتاب بأنه نقل عن العلماء وعن الكتب. أما العلماء فكانوا كثيرين في بلاط أولجاتيو، من الخطا والماجين والهند وكشمير والتبت والأويغور وغيرهم من أقوام الترك والعرب والإفرنج. ومن هؤلاء العلماء، فلاسفة ومنجمون ومؤرخو أديان وغيرهم، فاتصل بهم رشيد الدين وأخذ منهم. وأما الكتب فقد كان كل عالم من العلماء في بلاط الخان مزوداً بكتب تشتمل على تواريخ أمته وحكاياتها ومعتقداتها. وأخذ رشيد الدين من هذه الكتب ما رآه يتفق مع خطته في الكتاب.

غير أن كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين يعتبر في الحقيقة ثورة في الكتابة التاريخية عند المسلمين، خاصة ذلك القسم الخاص بالشعوب التي عرفها المغول. فقد بذل فيه رشيد الدين جهداً كبيراً. ولعل من أهم أقسام كتاب جامع التواريخ، ذلك القسم الخاص بتاريخ الفرنج، وعنوانه " في

معرفة ولاية الفرنج وبحارها وجزرها " وهو يبحث في (ولادة المسيح وقصته وذكر البابوات والقياصرة)، وكانت هذه أول محاولة من مؤرخ مسلم للبحث في التاريخ الأوروبي الوسيط.

ولكي نعرف منهج رشيد الدين في كتابه، فمن المستحسن أن نستمع إليه وهو يقول: " أستطيع أن أشهد لنفسي، بأني لم أدخر أي احتياط أو جهد في تحري الحقيقة والامتناع عن كتابة كل ما هو زائف أومشكوك فيه. وقد اقتبست - دون أي تغيير - ما انطوت عليه أصدق الوثائق الخاصة بكل شعب، والروايات التي حازت أحسن التقدير، والمعلومات التي استقيتها من أعلم الرجال في كل قطر. وفتشت كتب المؤرخين ورجال الأنساب، وحققت هجاء اسم كل أمة وكل قبيلة. ثم رتبت المواد التي جمعتها على نظام منهجي لم يتبعه أحد قبلي، ومن شأنه أن ييسر تناوله على جميع قرائه ".

ولا يقل عن رشيد الدين أهمية بل يفوق عليه العالم والمفكر الكبير عبدالرحمن بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م، إذ إنه كتب تاريخه بعد أن تنقل في البلاد الإسلامية بالأندلس والمغرب، وخدم في دواوين الحكام والأمراء، وأرسله محمد الخامس سلطان غرناطة في سفارة إلى بيترو ملك قشتاله. لهذا شاهد ابن خلدون أحوال الكثير من الدول، وأدرك عوامل التدهور التي بدأ العالم الإسلامي يعانيه، وبالتالي أصبح لكتاب ابن خلدون وخاصة المقدمة أهمية كبيرة وقيمة تاريخية فريدة.

يضاف إلى ذلك أن ابن خلدون عاش في وقت بدأ العالم الإسلامي يفهم فيه مدلول ومفهوم علم التاريخ، لذلك عرف ابن خلدون التاريخ تعريفاً هاماً عندما قال: إنه " في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى. . وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق " . وهكذا أشار ابن خلدون إلى العلل والكيفيات والأسباب والنتائج مما يدل على تفهمه التام للتاريخ. كما يشير ابن خلدون إلى المؤهلات والصفات التي يجب أن يتصف بها الباحث في التاريخ إذ يقول إنه : " محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفيضان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن الزلات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتمدت فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور وزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق. . . " .

وتشكل مقدمة ابن خلدون منعرجاً حاسماً في كيفية فهم الإنسان لتاريخه وتقييمه له، وما يرجو منه من كشف، لا عن ماضيه فحسب، بل خاصة من تطور الجنس الذي ينتمي إليه ومصيره. وقبل ابن خلدون، اعتبر الناس أن التاريخ إنما هو رواية صادقة، مرتكزة على قواعد سليمة، عند أهل الجد من المؤرخين، غايتها الإلمام بحوادث الماضي والإحصاء العددي لها. لقد حاول الإنسان أولاً أن يؤرخ للحوادث البارزة، أي يكون لنفسه

ولعشيرته ولقومه ذاكرة تحفظ المفاخر خاصة، وتضبط أزمانها حسب السنوات، من دون أن يحاول أن يفهم فهماً عقلياً عميقاً ضرورة بروزها في زمن وبيئة ما، وسر تداخلها، ومدى تأثيرها على جنسه كإنسان بقطع النظر عن الشعوبية الضيقة. وأول من شذ عن هذه القاعدة هو المؤرخ الإغريقي ثوكيديديس، فلقد حاول التحليل والتعليل. لكن رغم الومضات الصادرة من حين إلى حين عن بعض الأفذاذ، فإن التاريخ بقي بصفة عامة حتى القرن التاسع عشر مجرد دفتر به تضبط الوقائع حسب وقوعها، مع توخي الصدق والتحري في الرواية إذا كان المؤرخ أميناً. وهذا ما جعل إيف لاكوست yves Lacoste يجزم بأنه " قبل القرن التاسع عشر لم يكتب لأحد أن يتفوق على ثوكيديديس سوى ابن خلدون: فالأول قد اخترع التاريخ، وعلى يد الثاني اكتسى هذا التاريخ صبغته العلمية ".

ومن المعروف أن ابن خلدون قدم إلى مصر سنة ١٣٨٢م، ودرس بالجامع الأزهر والمدرسة القمحية، وتولى منصب قاضي القضاة الملكية بمصر، واتصل بكثير من العلماء والمؤرخين في مصر والشام. وأدت اتصالاته بعلماء مصر ومؤرخيها إلى تكوين مدرسة كبيرة للدراسات التاريخية. وكان أول تلاميذ تلك المدرسة هو أحمد بن علي المقريزي (المتوفى ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م) الذي كتب كتاباً ضخماً عن تاريخ القاهرة سماه " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار "، وهوكتاب اعتنى فيه المقريزي بدراسة الخطط. وكتب المقريزي في أول هذا الكتاب مقدمة جغرافية تاريخية، تناول فيها المدن والآثار المصرية، وعنى عناية خاصة بخطط

الفسطاط والقاهرة. ثم كتب المقريزي سلسلة من الكتب التاريخية تحكي قصة تاريخ مصر منذ فجر الإسلام، فكتب كتاباً سماه (عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط)، وهو تاريخ لعصر الولاة في مصر. ثم كتب كتاباً عن تاريخ الفاطميين سماه " اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا " . أما كتاب المقريزي عن تاريخ الأيوبيين والمماليك، فقد سماه " كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك " .

غير أن أهمية كتابات المقريزي التاريخية تصل ذروتها فيما قام به من دراسات في التاريخ الاقتصادي، مما جعله أشهر مؤرخ في هذا المجال. فقد كتب كتاب " الأوزان والأكيال الشرعية " ، وكتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " ، وهو الكتاب الذي تناول فيه تاريخ المجاعات والأوبئة التي نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة ١٤٠٥م، وأعطى للقارئ سبباً هاماً من أسباب هذه المجاعات والطواعين والأوبئة، وهو: " سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد " ، وهذا منهج جديد وتفسير اقتصادي للتاريخ تعلمه المقريزي من أستاذه ابن خلدون الذي اتصل به وكانت بينهما صداقة حميمة.

وشاهد ذلك العصر أيضاً المؤرخ الكبير أحمد بن علي المعروف باسم ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م صاحب كتاب " أنباء الغمر في أبناء العمر " ، الذي يعتبر أهم المراجع الأصلية لعصره، لما احتواه من معلومات هامة لحوادث الدولة وسياستها العامة. وكذلك عاش في ذلك العصر محمود بن أحمد العيني (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) صاحب كتاب

" عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان " ، وهو من أعظم الكتب التي كتبها العيني .

وفي القرن الخامس عشر أيضاً عاش المؤرخ الكبير أبو المحاسن يوسف ابن تغرى بردي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م) صاحب كتاب " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " ، وهو من أحسن مصادر تاريخ مصر العصور الوسطى . ولأبي المحاسن كتاب آخر عنوانه " حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور " ، وهو ذيل " لكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك " لأستاذه المقريزي . وقد رتبه أبو المحاسن على السنين والشهور والأيام كترتيب كتاب السلوك ، وبدأ به من حيث انتهى المقريزي . غير أن أبا المحاسن خالف المقريزي ، فأطال في كل من الحوادث وتراجم والوفيات .

وتتلمذ ابن الصيرفي (ت ٩٠٠هـ) على ابن حجر العسقلاني ، فكتب كتاب " نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان " ، وافتتحه بسلطنة برقوق سنة ١٣٨١م واختتمه عند سنة ١٤٤٦م . ولابن الصيرفي كتاب " أنباء العصر بأبناء العصر " الذي لم يصلنا منه سوى الجزء التاسع الذي نشره الدكتور حسن حبشي بالقاهرة سنة ١٩٧٠ .

أما أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠١هـ/ ١٤٩٧م) فهو صاحب " التبر المسبوك في ذيل السلوك " وهو تكملة لتاريخ المقريزي . وللسخاوي كتاب " الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ " ، وهو في قواعد الجرح والتعديل عند المؤرخين . ويحتوي الكتاب على صفحات كثيرة في تاريخ التاريخ وفضله بين العلوم اللازمة للمشتغلين بالحكم ومصائر الدول .

وإلى ذلك العصر ينتمي أيضاً المؤرخ الكبير محمد بن أحمد بن إياس (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م). وقد صنف ابن إياس كتاباً قيماً في التاريخ عنوانه " بدائع الزهور في وقائع الدهور "، وهو كتاب يبحث في تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العصر العثماني. ولابن إياس أيضا كتاب " نشق الأزهار في عجائب الأقطار "، وهو كتاب في الفلك والهيئة وتركيب الكون وآثار مصر الفرعونية وملوكها. ويعتبر كتاب بدائع الزهور المرجع الرئيسي لحوادث فتح العثمانيين لمصر، وفيه لم يكتف ابن إياس بمجرد سرد الحوادث والوقائع والوفيات، بل كان بين الحادثة والأخرى يشرح ويعقب ويفلسف مع شيء من القسوة في الحكم والجرأة في التقدير.

تلك كانت مؤلفات بعض مشاهير مؤرخي مصر في القرن الخامس عشر الميلادي. ومن الملاحظ أن كلاً منهم كان يفتتح كتابه بعد البسملة والحمد لله والصلوات والطيبات، بذكر بدء الخليقة ويعقبه بقصص الأنبياء والمرسلين، ثم يأخذ في شرح فضائل مصر وما امتازت به من الصفات على سائر البلدان، وينتقل بعد ذلك إلى تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي فيكون مختصراً أولا، ثم أقل اختصاراً، وهكذا إلى أن يصير الكتاب سجلاً يومياً لما يقع بمصر وولاياتها وحاراتها من الحوادث الكبرى والصغرى في عصر المؤلف. وقد يتخلل هذا السجل شيء عن أسعار المحاصيل وأحوالها، أو فيضان النيل أو تفصيلات جدل أدبي أو أدوار محنة فقهية أو تعديل في نظم الحكم والجيش، أو نص رسالة أرسلها ملك من ملوك البلاد المجاورة وجواب السلطان عليها، وذلك فضلاً عن الوفيات والتراجم التي تطول أو تقصر نظرا لعوامل كثيرة.

وهكذا وصلت الكتابة التاريخية في مصر أواخر عصر سلاطين المماليك إلى درجة كبيرة من النضج والتقدم. ومهما قيل في قصور طريقة مؤرخي تلك الفترة من الناحية العلمية، فحسبهم أنهم خلفوا للمؤرخين المحدثين ثروة تاريخية طائلة ما زلنا حتى اليوم في حاجة ماسة إلى تحقيقها ونشرها وإخراجها من بطون المخطوطات إلى عالم الكتب المطبوعة.

وجملة القول أن العرب قد لعبوا دوراً حاسماً في تقدم العلوم التاريخية، وكان دورهم في عصورهم الذهبية يفوق بكثير دور الأمم الأخرى. فعن طريق منهجية الحديث، أدخلوا في التاريخ الاعتناء بالموضوعية، والتأكد من صحة الأخبار المروية بفضل قواعد الجرح والتعديل، والاعتناء بنقد السند والرجال، أي بما نسميه اليوم " النقد التاريخي " . وبهذا جعلوا من التاريخ علماً حقاً، ذا جدية ومنهجية. وكذلك قد حاولوا أن يخرجوا به عن حدود الإقليمية الضيقة إلى حدود أوسع هدفها أن تشمل العالم المتحضر المعروف في زمانهم.

التاريخ في العصور الحديثة:

كان إحياء التراث القديم (اليوناني والروماني) أقوى خصائص أو مظاهر عصر النهضة الأوروبية، وهو العصر الذي يمثل فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، وتمتد هذه الفترة ما بين أوائل القرن الثالث عشر وأواخر القرن الخامس عشر، بحيث لم يحل القرن السادس عشر إلا وكانت القوى التي انعطفت بالنهضة عن طريق العصور الوسطى قد

أسفرت عن نفسها في قوة ووضوح، مما يجعل القرن السادس عشر بحق في بداية العصور الحديثة.

وكان إحياء التراث القديم أو بعث الآداب اليونانية والرومانية يعني في مجال التأريخ أموراً كثيرة، فكان يعنى أولاً صبغ التاريخ بالصيغة الزمنية، وتحول تدوين شؤون الدولة من رجال الدين إلى العلمانيين، والعدول عن الأساليب التاريخية الخاضعة لنظريات اللاهوت والفلسفة التي سيطرت على مجرى الأحداث التاريخية ورسمت لها مسارها دون أي اعتبار للواقع المادي ولنشاط الإنسان في رسم هذا المسار، إلى كتابات من طراز يختلف عنها كل الاختلاف، وهي كتابات يعزي فيها إلى حيل الدبلوماسيين المدبرة والاحتكام إلى السيف من حين لآخر ما كان يعزى من قبل إلى اعتراض المشيئة الإلهية حيناً وتدخل القديسين أحياناً. وكان من جهة ثانية يعنى غلوا في الحط من شأن العصور الوسطى كأنها لم تكن سوى عهود حرية مغلولة ولاتينية مرذولة، وهو غلو كان يقابله غلو آخر في تمجيد عصور الأدب القديم كأنها قد شهدت بلوغ كل ما يصبو إليه العقل الإنساني. وكان يعني من جهة ثالثة تقدماً واسع المدى في أسلوب الإنشاء الأدبي وتهذيباً لمفردات اللغة اللاتينية واحتذاء لطراز الأدب الروماني في أزهى العصور.

ومن ثم. فقد عاد الناس في عصر النهضة إلى تقييم التاريخ بوصفه دراسة اجتماعية تستند إلى أسلوب علمي، وإلى كتابته استناداً إلى أعمال الإنسان ونشاطه في تحديد مساره تماماً كما كان الحال في العصرين الإغريقي والروماني. وترتب على ذلك البدء في تنظيف المادة التاريخية التي كتبت في

العصور الوسطى مما علق بها من خرافات لا أساس لها، إلى جانب البدء في كتابة النتائج على أسس نقدية تحليلية.

وعلى العموم، فقد بدأ التاريخ يفقد طابعه الديني، وسيطر المذهب العقلي على كتابه، فاستبعدت الخوارق والمعجزات، وأصبح هدف المؤرخ هو التثقيف السياسي لامجرد إلقاء المواعظ وحمل الناس على الأخذ بأسباب الدين. وفضلاً عن ذلك، فقد تركزت كتابة التاريخ حول الدولة ذاتها بوصفها المحور الرئيسي الذي ينبغي أن تدور حوله الأحداث، وأصبح المؤرخ ذاته في الصف الأول من رجال الدولة. وتبعاً لذلك فإن المؤرخين لم يحفلوا كثيراً بالجماهير ولم يهتموا بالشعب، وإنما تركز اهتمامهم على بلاط الملوك والأمراء والحكام وعظماء الرجال.

ونورد على سبيل المثال بعض أعلام مؤرخي عصر النهضة في إيطاليا، ويبرز في مقدمتهم لورنزو فالا Lorenzo Valla (١٤٠٥ - ١٤٥٧)، الذي يعد استاذ النقد التاريخي العلمي، وبدأ حقبة جديدة في تاريخ البحث الأوروبي بمقالته الجريئة التي انتقد فيها " هبة قسطنطين " Donatio Constantini التي كانت تعتبر مقدسة، لأن البابوات كانوا يقولون: إن الإمبراطور قسطنطين الكبير وهب فيها أراضي إيطاليا للكرسي البابوي، باعتبار أنها إرث الرسول بطرس أخذه عن السيد المسيح مباشرة. فقد أثبت فالا من دراسته للغة التي كانت تكتب بها الوثائق، أن " الهبة " التي ارتكزت عليها البابوية في ادعائها بالسلطة الزمنية، لم تكتب كما يبدو من أسلوبها في زمن الإمبراطور قسطنطين، وإنما كانت مزورة، حيث قام رجال الكنيسة بتزييفها ووضع خاتم قسطنطين عليها في زمن يتأخر نحو خمسة

قرون عن التاريخ الوارد بها. وقد أحدث هذا الكشف زلزالاً عنيفاً في أوساط العلم والسياسة والدين في أوروبا، وهوجم فالا هجوماً عنيفاً من الدوائر الكهنوتية. أما رسائل فالا المتعلقة بنص ترجمة الكتاب المقدس المعروفة بالفلجات Vulgate والتي أقلقت بال رجال الكهنوت، ومقالاته الهادمة التي كتبها في نقد العقود الأولى من تاريخ ليفيوس، فكانت أقل تأثيراً وإن كانت أدل على قوة ملكة النقد عند فالا.

وكتب ليوناردو بروني Leonardo Bruni (١٣٧٤ - ١٤٤٤) كتاباً بعنوان " تاريخ فلورنسا " Storia Fiorentini ، وهو يعد أحسن المؤلفات التاريخية التي خلفها عصر النهضة، إذ كان أول مؤلف هام يحوي كل الخصائص البارزة للمدرسة الحديثة، من صفة زمنية، وحب للقديم، وتعقل للأشياء، وعناية بالأفراد.

وكان بوجو برتشوليني Poggio Bracciolini (١٣٨٠ - ١٤٩٥) كاتب سر سبعة بابوات متتابعين، ونتبين من كتابه " ثمانية كتب في تاريخ فلورنسا " كيف كان التمسك بالأسلوب اللاتيني يطمس المعنى الإيطالي. أما فلا فيوس بلوندس Blondus (١٣٨٨ - ١٤٦٣) فهو أعظم علماء عصر النهضة، وكتب عدة مؤلفات في الآثار الرومانية، كما كتب واحداً وثلاثين كتاباً في تاريخ المسيحية ابتداء من سقوط الدولة الرومانية، وقد أصبحت هذه الكتب أسساً لكل ما كتب بعد ذلك في موضوعها.

وإلى جانب كل من ذكرنا من قبل، كان هناك الكاتبان الفلورنسيان العظيمان اللذان يمثلان مؤرخي عصر النهضة أصدق تمثيل، وهما نيكولو مكيا فللي Niccolo Machiavelli (١٤٦٩ - ١٥٢٧) وتلميذه بييرو

جـويتـشـارديني Piero Guicciardini (١٤٨٢ - ١٥٤٠). وقـد تقلب مكيا فللي في كثير من المناصب السياسية والعسكرية في أوروبا، وجال في أوروبا، واكتسب خبرة واسعة بسياسة الجمهوريات الإيطالية وأوروبا في عهده، ثم صاغ خلاصة تجارية في كتابه " الأمير " Ii Principe ، وهو كتاب فلسفة وسياسة في ظاهرة، ولكنه قائم في صميمه على فهم سليم للتاريخ، وخاصة لتاريخ إيطاليا في عصره. وقد رسم مكيافللي في هذا الكتاب كيف يستطيع أمير مستبد قوي جريء أن يوحد إيطاليا ويجعل منها دولة عظيمة. وخلاصة فلسفته السياسية أن : الغاية تبرر الوسيلة، أما جوتشارديني فقد كتب تاريخاً لإيطاليا من عام ١٤٩٤ إلى ١٥٣٢ ، وهذا الكتاب لا يخلو من تعمق ونظر تاريخي. وقد استمد جويتشارديني قواعد السلوك السياسي من حوادث التاريخ، وتشدد في تطبيق هذه الطريقة إلى درجة كبيرة.

وحاول نفر من الرهبان الخروج من سآمة التآريخ أو المدونات التاريخية والبحث عن طرق جديدة لدراسة التاريخ وفهمه. وقد التفت بعضهم إلى أهمية مجموعات الوثائق المكدسة في الأديرة وإمكانية استخدامها كمادة تاريخية إذا هي درست الدراسة العلمية الكافية ، وأهم هؤلاء الرهبان هم البندكتيون في ديرسان مور Saint Maur في فرنسا، ويشبههم في ذلك نفر من رهبان الجيزويت في بلجيكا على رأسهم الراهب المؤرخ المشهور يوحنا بولاند Jean Bolland (١٥٩٦ - ١٦٦٥) الذي أصبح علماً على مدرسة جديدة في دراسة وثائق الأديرة واستخراج المادة التاريخية منها وقد أدت دراسات أولئك الرهبان إلى الكشف عن حقائق أزالت من النفوس كثيراً من الأوهام.

وأغرى هذا النجاح الكثير من الرهبان على الانكباب على مجموعات الوثائق التي تحت أيديهم، فأقبلوا يدرسونها ويمحصونها، فبدأت أصول علم الوثائق تظهر، وهو العلم الذي عرف فيما بعد باسم " الباليوجرافية " Paleography ، ووظيفته دارسة الكتابات والمخطوطات، وتفرع عنه علم النقوش المعروف باسم " الابيجرافية " Epigraphy ، ووظيفته دراسة النقوش والرسوم على الأحجار وغيرها وتفسيرها واستخراج المادة التاريخية منها، ثم لم يلبث أن ظهر علم الآثار أو " الأركيولوجيا " Archeology ، وظيفته دراسة كل ما خلفته العصور الماضية من أبنية وأشياء مصنوعة أو أدوات أو قطع أو نقوش أو بقايا عمران.

ولقد شهد القرنان السادس عشر والسابع عشر بواعث جديدة شجعت على دراسة التاريخ، وأكثر هذه البواعث أهمية أثر الأقطار التي انتهت بفتحها رحلات الاستطلاع والاستكشاف الكبرى المعتبرة أبرز خصائص ذلك الزمان. فقد اتصلت حضارة أوروبا المسيحية في المكسيك وبيرو وجزر الهند الشرقية وجنوب إفريقيا وجزر المحيط الباسفيكي، بمدنيات أو جاهليات مباينة بالمرة لنظائرها في حوض البحر المتوسط، ولكنه في الوقت نفسه كانت جليلة القدر بمالها من قدم العهد، فاتنة بمالها من جاذبية الشيء الجديد المستطرف، فكان ذلك حافزاً لخيال المؤرخين، موسعاً لنطاق البحث التاريخي، إذ حل البحث عن العادات والآداب والعقائد والنظم السياسية والاجتماعية محل ما شهدته العصور الوسطى من حوليات وتآريخ أو مدونات رتيبة متشابهة.

ومن البواعث أيضاً التي أثرت في نشاط المؤرخين، تلك الخصومات الدستورية التي اتصفت بها الفترة الممتدة من منتصف القرن السادس عشر إلى منتصف القرن السابع عشر وأهمها ما يلي:

١ - جهاد الأراضي المنخفضة الهولندية من أجل الاحتفاظ بحقها القديم في الحكم الذاتي والاستقلال الإقليمي عن مركزية فيليب الثاني ملك أسبانيا الباغية - فقد اقتضى الجدل الذي تقدم ذلك الجهاد بحثاً عميقاً في محفوظات العصور البرجندية وحتى محفوظات العصور الكارولنجية.

٢ - النزاع الذي ثار في فرنسا بين الملك وبين طبقة النبلاء الإقطاعيين، وهو نزاع دقيق وقف الأمر فيه على نتائج البحث التاريخي، فإن طائفة من الكتب المشتركة بين الفقه والتاريخ عرضت على الناس الأصول الكابية (نسبة إلى أسرة Cape) للملكية الفرنسية وانتصرت لقضية الحكم الدستوري.

٣ - النزاع الذي ثار في إنجلترا في أوائل القرن السابع عشر بين ملوك آل ستيورات وبرلماناتهم. فقد كان كلا الفريقين المتنازعين يرجع إلى السوابق القديمة للاستناد إليها. فالملوك كانوا يحتجون بأنهم انما يطالبون بامتيازات ثبتت بدون نزاع للملك هنري الثامن (١٤٨ - ١٥٠٩) والملكة اليزابيث (١٥٥٨ - ١٦٠٣) من أسرة تيودور، وباشرها كلاهما من غير أن يلقى عليها اعتراضاً. وكانت البرلمانات من ناحيتها تحتج بأنها إنما تطالب بامتيازات وتدعي حقوقاً أقرها واعتمدها الملك هنري السادس (١٤٢٢ - ١٦٠٣) على أكمل

الوجوه وأصحها. وأقبل المشتغلون بالشؤون القديمة من الفريقين يستشيرون الوثائق الرسمية العتيقة، ويدرسون القوانين القديمة المهملة، ويجمعون كل سابقة لها صلة بموضوع النزاع. والحق أن كبار المدافعين عن البرلمان، أمثال كوك Coke وسلدن Selden وسبلمان Spelman وسنت جون st.John، قد أمدوا تاريخ الدستور الإنجليزي وتاريخ تطوره، بمدد خالد باق على الزمن، بأن نشروا على الناس الأسس التي تقوم عليها حريات الشعوب.

وأياً ما كان الأمر، فإن الخصومات السياسية - وكذلك الخصومات الدينية - لم تسكن ثائرتها في أوروبا الا بعد زمن طويل. ذلك أن الركود الذي أصلب الشؤون السياسية، والتشكك في المسائل الدينية، لم يأذنا للناس بقدر كاف من الطمأنينة يجعل التاريخ يعود فيثبت أنه علم، وليس بأداة حرب، إلا بعد أن انقضى من القرن الثامن عشر مقدار غير قليل.

ومما تجدر الإشارة إليه أن فكرة التفوق القديم قد سيطرت على عقول عدد كبير من رجال النهضة، فكانوا يعتقدون في تفوق الإغريق والرومان، باعتبارهم أرباب الأدب والعلم والفن، وأن ما وصلوا اليه هو درجة الكمال لا يمكن الزيادة عليه. ولكن بالرغم من ذلك، بدأت فكرة التقدم تظهر بوضوح عندما شعر الإنسان بأنه حر الإرادة ويستطيع إلى حد كبير تحديد مستقبله. ومن ثم، فقد نشبت معركة بين المفكرين: بين الذين يقولون بتفوق الماضي، وبين الذين يقولون بتفوق الحاضر. وفي خلال القرن السابع عشر، ظهر الإيمان بنظرية التقدم في التاريخ على يد برنار فونتنل Bernard Fontenelle (١٦٥٧ - ١٧٥٧)، والذي قال: " ليس هناك فرق بيننا

وبين أجدادنا، إلا أنهم سبقونا في ميدان العلم، فكانوا المخترعين الأول، ولو كنا محلهم لقمنا بمثل ما قاموا به ولو كانوا محلنا لعملوا مثل ما نعمل، فنحن نجلهم أكثر مما ينبغي، كما سيجلنا أبناؤنا فيما بعد " .

وجاءت ثورة ديكارت[1] Descartes الفكرة التي أعلنت الاستقلال الإنساني في أعماله مؤيدة فكرة التقدم. ويقول الفيلسوف الألماني ليبنتز Leibnitz (١٦٤٦ - ١٧١٦) - وكان عالماً كبيراً في الرياضيات كذلك- : " وعلى ممر الأيام سيصل الجنس الإنساني إلى درجة من الكمال لا نتصورها اليوم " .

وعلى كل حال، فمنذ أوائل القرن الثامن عشر أخذ العلم التاريخي يستقر شيئاً فشيئاً على قواعد وأصول فنية علمية، خرجت به - شيئاً فيشئاً أيضاً- من مجال الأدب والفلسفة والتأملات وأساطير القديسين ومدائح الملوك إلى أرض العلم الصلبة، وولد علم التاريخ في الغرب. ونؤكد مرة أخرى في الغرب، لأن التاريخ عند العرب ولد من أول الأمر علماً دقيقا قائماً على النقد والتحقيق، فإن شجرة التاريخ عند العرب نبتت في تربة علم الحديث، وعلم الحديث علم يقوم على الدقة والتحري والضبط بالنسبة للحديث المروي، وعلى نقد الرجال - وهو علم الجرح والتعديل - فيما يتصل برجال السند، وهم قواعد الرواية وعمدها.

وبمرور الزمن زادت العناية بدراسة التاريخ والاهتمام بجعله علماً

---

(١) كان ديكارت مؤسس مدرسة الفلسفة العقلية الخالصة التي سيطرت في عالم الفلسفة حتى ظهور جون لوك John Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤) الذي لجأ إلى الإحساس، ولم يعتمد كلية على العقل كما فعل ديكارت.

محترماً. ووسط هذا الحماس للتاريخ، ظهر إدوارد جيبون Edward Gibbon (١٧٣٧ - ١٧٩٤) الذي يعتبر من أعاظم المؤرخين وأساتذة هذا العلم على مر العصور، رغم أن كتابه الأشهر: " تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها "[١] حافل بوجوه النقص، ولكنه عمل علمي رائع كتبه صاحبه عن إيمان عميق بأهمية ما يعمل، وأنفق في كتابته معظم سنوات عمره تقريباً، ولا غرو فقد قال عنه المؤرخ الإنجليزي بيوري Bury : " إنك لن تكون مؤرخاً حتى تقرأ جيبون " .

ويرى بعض الباحثين أن كتاب جيبون لا يتميز بفلسفة خاصة للتاريخ، بل إن الدقة والضبط والاستفادة الكاملة من المراجع تنقصه في أحيان كثيرة، ولكنه كان أول غربي كتب في العصر الحديث دراسة تاريخية لدولة كبرى، قص فيها تاريخها كاملاً، وحاول أن يستقصي أسباب ضعفها وانهيارها. وكان إقبال الناس على هذا الكتاب وتقديرهم أياه كافياً لرفع قدر التاريخ الى مستوى أهم فروع العلم وأجدرها بالعناية. وقد نجح إلى حد كبير في أن يضع قارئه في العصر الذي يتحدث عنه، حتى إنك لتسمع - وأنت تقرأ وصف خروج جيش قيصر من روما لحرب - قعقعة العجلات وصلصلة السيوف وصهيل الخيل. ولم يحاول أن يفلسف الأحداث أو أن يجهد نفسه في البحث فيما وراءها. وكان جيبون من الأوروبيين القلائل الذين قدروا الإسلام ورأوا بعض جوانب عظمة الرسول عليه الصلاة والسلام، وهنا نجد جيبون أوسع ذهنا وأكثر تحرراً من فولتير Voltaire (١٦٩٤ - ١٧٧٨) الذي لم يستطع - رغم تحرره المعروف - التخلص من أسار التعصب الكاثوليكي.

---

(١) The History of the Decline and Fall of the Roman Empire

ويعتبر فولتير ومعاصره هيوم Hume (١٧١١ - ١٧٧٦) إمامي مدرسة جديدة في التفكير التاريخي ورائدي حركة جديرة في كتابة التاريخ، هي حركة الاستنارة. The Enlightenment ، ولو أن بعض الباحثين يرون أن جيبون - وقد عاش في صميم عصره الاستنارة وعاصر فولتري ومونتسكيو وجان جاك روسو وغيرهم من أعلام ذلك العصر - إنما كان أكثر الجميع استنارة، ولا يستثنون من ذلك جان جاك روسو. وعلى العموم، فالمقصود بكلمة الاستنارة تلك الجهود التي اتسمت بها مقدمات القرن الثامن عشر، والتي استهدفت تطبيق الثقافة العلمانية في كل ميادين الحياة الإنسانية والتفكير، وهي في واقعها ثورة على الدين الذي يقيد النشاط الإنساني، فهي جهاد ضد سيطرته وسلطانه، غايتها تحرير الإنسان من كل قيد على فكره وتصرفاته.

وقد نشر فولتير عام ١٧٣١ كتابه الأول عن " تاريخ شارل الثاني عشر " Histoire de Charlesxll مستعرضاً فيه حياة وأعمال ملك اسكندیناوه وحروبه مع الروس. وقد رأى الناس في هذا الكتاب لونا جديداً من التاريخ لم يعرفوه إلى ذلك الحين، فعلاوة على تحقيق فولتير لأعمال شارل الثاني عشر ملك اسكندیناوة الشاب واجتياحه للقوات الروسية كأنه شهاب ثاقب، معتمداً في ذلك على دراسة نستطيع أن نصفها بأنها وثائقية، نجد أن فولتير عرف كيف يتأنى في الحكم ويحسن المقارنة بين ذلك الشاب المغامر ومنافسه العنيد بطرس الأكبر قيصر الروس. فقد رأى فولتير أن شارل الثاني عشر - رغم انتصاراته العسكرية - شاب متهور مخرب، على حين أن بطرس الأكبر - رغم قسوته وعنفه - رجل مصلح استطاع أن ينشئ إمبراطورية شاسعة متحضرة.

وأيد فولتير بعد ذلك ملكته التاريخية في كتابه البديع " خطابات فلسفية " Lettres Philosophiques ، الذي يدخل في نطاق المؤلفات الفلسفية، ولكنه حافل بالآراء والملاحظات على مسار التاريخ. وفي عام ١٧٥١ نشر فولتير كتابه المشهور عن " عصر لويس الرابع عشر " Le Siecle de Louis x IV ، وأبدى فيه براعة فائقة في تحليل الأحداث والأشخاص، ورغم أنه لم يتقيد فيه بالترتيب الزمني الدقيق الا أنه نفذ الى صميم عناصر القوة والضعف في فرنسا على عهد لويس الرابع عشر، وبذلك أعطى للمرة الأولى في تاريخ الفكر الغربي الحديث صورة بديعة متكاملة لعصر اشتهر بما زانه من مظاهر الحضارة. وأراد فولتير أن يؤرخ للعالم، إلا أنه لم يستطع السير في عمل ضخم كهذا، واقتصر عام ١٧٥٦ على تحرير كتيب صغير بعنوان " مقال عن الأخلاق والعادات " Essai sur Ies moeurs ، حاول فيه التعمق في فهم الجماعة البشرية وتركيبها، ولهذا يعتبر هذا الكتيب أول محاولة صادقة لوضع تاريخ عام للثقافة، وقد اشتهر باعتراف فولتير فيه بفضل العرب على الحضارة الأوروبية، ويتناوله الكلام على الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، وبإعراضه التام عن كل ما غلب على التآريخ حتى وقته من تعليل الحوادث بعلل سماوية.

ومن هنا يميل الكثيرون من المؤرخين إلى اعتبار فولتير مؤسس العلم التاريخي بمفهومه الحالي في الغرب. ولكن فولتير لم يكن في الحقيقة مؤرخاً، وإنما كان من هواة التاريخ، وقد كتب التاريخ على أنه لون من الأدب أو الفلسفة. وكذلك الحال بالنسبة لجبيون، فرغم أن الأخير وهب حياته كلها لدراسة التاريخ، إلا أنه ظل يعتقد أنه ضرب من الأدب، وقال

عنه " أذيع ضروب الأدب " The most popular of all forms of Ii-terature ولقد أثر فولتير بنزعته العقلية وروحة الفياض في المؤلفات التاريخية التي كتبها الفيلسوف والمؤرخ والاقتصادي الكبير ديفيد هيوم، وخصوصا مؤلفه عن تاريخ إنجلترا الذي يقع في ستة مجلدات، والمؤرخ الأسكتلندي وليم روبرتسون Robertson (١٧٢١ - ١٧٩٣) الذي ترجم كتابه " تاريخ عهد الإمبراطور شارل الخامس " إلى كثير من اللغات الأوروبية، والمؤرخ الألماني ميشيل شميت Schmidt (١٧٣٦ - ١٧٩٤) الذي كتب تاريخاً قيماً للأمة الألمانية ولكنه توفى قبل إتمامه، والمؤرخ الألماني أرنولدوهيرن Heeren (١٧٦٠ - ١٨٤٢) الذي امتاز بدراسة التاريخ القديم دراسة قائمة على معرفة الأحوال الاقتصادية، وبذلك يعد من السابقين إلى القول بالتفسير الاقتصادي للتاريخ .

ولا يمكن أن نترك عصر الاستنارة ومؤرخيه دون أن نشير إلى آدم سميث Adam Smith (١٨٢٣ - ١٧٩٠)، الذي يعتبر مؤسساً لعلم الاقتصاد الحديث بكتابه المشهور عن ثروة الأمم The Wealth of Nation ، وهو كتاب تاريخ في صميمه وفي طريقته . ويعد آدم سميث صاحب الفضل الأول في لفت أنظار الناس إلى أهمية العامل الاقتصادي في بناء الدول والجامعات . وقد أفاض كارل ماركس بعد ذلك في هذه الناحية .

وإذا كان مؤرخو القرن الثامن عشر قد لفتوا أنظار الناس إلى أهمية دراسة التاريخ دراسة علمية وقيمتها الكبرى كدراسة إنسانية أصيلة، فإنهم رغم ذلك لم يصلوا إلى تثبيت أقدام التاريخ كعلم له أصول ومناهج مقررة في البحث . ويؤخذ عليهم كذلك قلة تنبههم إلى تطور الإنسان ومجتمعه،

وسوء ظنهم بالناس وتصرفاتهم، وسخريتهم من البشر وأعمالهم، وكانوا بذلك أقرب إلى الأخلاقيين منهم إلى العلماء أو المؤرخين المحترفين. ولهذا فإنهم لم يستطيعوا أن يصلوا بالتاريخ إلى مرتبة العلوم التي تدرس في الجامعات.

ويرى هرنشو أنه عندما افتتح القرن التاسع عشر، كان الغرب قد تهيأ لقيام مدرسة علمية من المؤرخين. ولكن التأريخ في ذلك العهد - أي مطلع القرن التاسع عشر - كان يعاني من عيوب، أهمها ثلاثة :

١ - خطأ في القصد.

٢ - نقص في التصور

٣ - عجز في الطريقة.

فأما أن القصد كان خطأ، فذلك لأن التاريخ قلما كان يدرس لذاته، بمعنى أنه إنما كان يدرس لتأييد ما هو أجنبي عنه من المصالح السياسية أو الدينية، لا ابتغاء التوصل إلى الحقيقة في أحداث الماضي الخطيرة، من حيث عللها ووصفها ونتائجها. فحتى فولتير لم يتورع عن تسخير علمه في مناوأة رجال الدين، وحتى الفيلسوف هيوم لم يقو على ألا يكون كتابه " تاريخ إنجلترا " مجرد نشرة مسهبة من نشرات حزب المحافظين. ولقد بلغ الأمر بالكاتب الأمريكي أمرسون Emerson (١٨٠٣ - ١٨٨٢) أن قال عن علماء الإنجليز : " أنهم حتى عندما يتناول تاريخ الرومان واليونان، فإنهم يهبطون به إلى مستوى الصحافة الحزبية الإنجليزية " .

وأما أن التصور كان ناقصاً، فذلك لأن المؤرخين كانوا مسرفين في تزعتهم المحلية وعصبيتهم الطائفية والأخذ بالناحية الفردية من التاريخ

والنظرة السطحية إلى الأمور. لقد كانوا مسرفين في النزعة المحلية، لأنهم كانوا يقصرون أنفسهم على دولة بعينها، بل على إقليم بعينه، غير عابئين بأوروبا فضلاً عن القارات الأخرى، من حيث هي كل لا يتجزأ ولقد كانوا مسرفين في العصبية الطائفية، لأنهم قلما كانوا يتخطون دائرة الدين والسياسة المحدودة، غافلين عما كان يجد في ميادين الاقتصاد والاجتماع والعلم والفن من مؤثرات كثيراً ما كانت أجل خطراً من شؤون الدين والسياسة. وكانوا مسرفين في أخذ الناحية الفردية من التاريخ، لأنهم كانوا يعنون بالملوك والملكات والوزراء والقواد، وفي الجملة كانوا يعنون بعظماء الرجال، غاضين النظر عن أحوال الجماهير؛ لأنها كانت في اعتبارهم أقل من أن يعرجوا إليها ويقفوا عندها. ولقد كانوا مسرفين في النظرة السطحية إلى الأمور، لأنهم لم يستطيعوا أن ينفذوا إلى الخفي المستتر وراء ظواهر الأخبار الخاصة والقصص العامة من أفكار وعواطف وغرام، هي القوى الحافزة إلى العظام المسطورة.

هذا ولقد كانت الطريقة عاجزة قاصرة، لأن المؤرخين سلموا بكثير من الأخبار على أساس الوثوق والتصديق دون نقد أو تمحيص، ولأنهم لم يعنوا العناية الكافية بجمع المصادر الأساسية، وما كان منها في متناول أيديهم، فإنهم لم يناقشوه وينقدوه ليميزوا منه الحق من الباطل.

وعلى كل حال، فإن " وضع " التاريخ والنظرة إليه قد نالهما تغيير حاسم خلال القرن التاسع عشر، فانتقل التاريخ من نطاق الهوايات أو الآداب إلى نطاق العلوم ذات الأصول والمناهج، ولم يعد الاهتمام التاريخي مقصوراً على دراسة الأشخاص والشعوب، بل أخذ يمتد إلى

دراسة الحضارة أو ما يسميه الألمان Kulturgeschichte . وقد جرى هذا التغير على يد مدرسة برلين، وطليعتها نيبوهرر Niebuehr (١٧٧٦ - ١٨٣١) وقائدها ليبولد فون رانكه Leopold von Ranke (١٧٩٥ - ١٨٨٦).

وكان نيبوهرر سياسياً ومؤرخاً اشتهر بكتابة " تاريخ الرومان " ونهج فيه منهجاً علمياً مبتكراً يقوم على النقد وتمحيص النصوص القديمة المشحونة بالخرافات، ومن أجل ذلك كان صحيحاً ما قاله المؤرخ الإنجليزي جوتش Gooch من أن نيبوهرر " أحيا التاريخ الروماني وبوأ التاريخ نفسه مكانة علم مستقل من الطراز الأول " .

أما ليبولد فون رانكه الذي قال عنه جوتش إنه " زعيم المؤرخين في الأزمنة الحديثة غير منازع " وإنه " لم يظهر قط مؤرخ أقرب منه إلى المؤرخ المثالي " ، فقد كان عميق الإيمان بالمسيحية على المذهب اللوثري، وقال بفكرة التطور العضوي للجماعات وكذلك بأهمية العامل الفردي Das In-dividualistische في توجيه أحداث التاريخ، ولكنه أنكر استخدام التاريخ للعظة والعبرة، وهو مذهب مؤرخي العرب ومعظم مؤرخي القرن الثامن عشر في أوروبا، وقال: إن التاريخ ينبغي أن يدرس لذاته لا كوسيلة للتعليم والتهذيب.

ولقد اهتم رانكه اهتماماً كبيراً بالوثائق ومخلفات الماضي، وبلغ من حماسه - هو وتلاميذه - لهذه الأصول أن انتشروا في الأرض ينقبون في كهوف المحفوظات ورفوف الأديرة باحثين عن الوثائق في حماس جعل الدول والإمارات والكنائس وغرف التجارة وبيوت الأشراف تهتم بتلك

الأضابير وتنظيمها، فنشأ علم الوثائق وأخذت قواعده، تستقر، وقامت دور المحفوظات ومجموعات السجلات في أوربا كلها. وكان اهتمام رانكة بالوثائق الرسمية ومكاتبات الدول سبباً في اهتمامه الشديد بالتاريخ السياسي والعسكري، فلم ينتبه كثيراً إلى النواحي الاجتماعية والاقتصادية، والنظرية الأساسية التي جاء بها هي قوله بأننا ينبغي أن نصور الماضي كما كان بالضبط wie es eigentlich gewesen ، وهي غاية عسيرة كل العسر، لم يوفق إليها هو نفسه في الكثير من كتبه. ومع ذلك، فقد دفع مذهبه الذي سبقت الإشارة إليه بالمؤرخين إلى الانصراف عن التصورات المثالية أو المتخيلة للماضي، والبحث عن الحقيقة بقدر ما تسعفهم قدراتهم وملكاتهم.

وعلى العموم، فإن الذي أعطى رانكه مكانه الكبير في تاريخ علم التاريخ، هو اهتمامه بالوثائق والمنهج الدقيق الذي وضعه لتنظيمها ودراستها، مما اعتبر فاتحة عصر جديد في تاريخ التاريخ، فتقرر بصورة نهائية مكانه كعلم له شخصيته وحدوده ومناهجه وأهدافه وفائدته. ولم يقتصر عمل رانكه ونيبوهر ومدرستهما على تقرير أصول البحث التاريخي ومناهجه ووضع الأسس العلمية للنقد التاريخي، بل إنهم عملوا - كما قال إيمري نيف Emerhy Neff في كتابه عن " شاعرية التاريخ " The Poetry of History - على " توكيد مغزى الأحداث واستمرارها وإدراك حركة التطور التاريخي وفهمها ".

على أنه مما تجب الإشارة إليه أن بعض معاصري رانكه ومؤرخي الجيل التالي عليه قد اتهموه بأنه جرد التاريخ من شاعريته وجعله سجلاً جافاً

للحقائق المدعمة بهوامش ضخمة من الإشارات إلى الأصول والمراجع. وأكبر ناقدي رانكه كان جاكوب بورخارد Jacob Burchardt (١٨١٨ - ١٨٩٧)، والذي نفر من جمود أستاذه وقضائه على الجانب الشاعري من التاريخ، وجمع بورخارد في مؤلفاته بين المنهج التاريخي الدقيق إلى جانب الإحساس الإنساني والجمالي.

وكان أكبر ممثلي الحركة الجديرة في كتابة التاريخ وأبعدهم أثراً في فرنسا وهو المؤرخ جول ميشيليه Jules Michelet (١٧٩٨ - ١٨٧٤) الذي جمع إلى ضبط المدرسة الجديرة ودقتها وقدرتها على الاستفادة من المراجع روحاً شاعرية رومانتيكية، وحماساً قومياً يساير حركة الثورة الشعبية التي استمرت في فرنسا طوال القرن التاسع عشر. وقد اشتهر ميشليه بتاريخه المطول لفرنسا الذي يقع في سبعة عشر مجلداً (١٨٣٣ - ١٨٦٧)، وهو من أعظم الأعمال العلمية في تاريخ التاريخ.

. وسرت عدوى الدقة والضبط من ألمانيا وفرنسا إلى إنجلترا، وتمثلت المدرسة الإنجليزية الجديرة في كل من سير فرنسيس بلجراف Francis Palgrave (١٧٨٨ - ١٨٦١) وجون ميتشل كمبل John Mitchell Kenble (١٨٠٧ - ١٨٥٧)، اللذين كانت كتاباتهما فاتحة عصر جديد للبحث العلمي في إنجلترا. ثم جاء في أثر هؤلاء الرواد جم غفير من العلماء، أعادوا من جديد بحث سجلات التاريخ البريطاني بأسره. ومن أبعد هؤلاء صيتا: " وليم ستابز Stubbs (١٨٥٢ - ١٩٠١) الذي اشتهر بكتابه " تاريخ إنجلترا الدستوري "، وما ندل كريتون Creighton (١٨٤٣ - ١٩٠١) الذي اشتهر بتأريخه للبابويه خاصة، وتوماس فردريك تاوت Tout (١٨٥٥ - ١٩٢٩) الذي كتب عدة مؤلفات من أهمها مؤلفه في

" العلاقات بين فرنسا وإنجلترا في العصور الوسطى " ، ثم بيورى الذي ألف وأجاد في كل عصر من عصور التاريخ . ويضارع بيوري في المكانة وفي الجمع بين صفات المؤرخ والفيلسوف والأديب : جورج تريفليان Tre-velian (١٨٧٦ - ١٩٦٢) الذي يعتبر كتابه عن التاريخ الاجتماعي لإنجلترا نموذجاً يحتذى في هذا المجال العسير من علم التاريخ . ولم يلبث أن امتد نفوذ المدرسة التاريخية الحديثة إلى بقية أجزاء أوروبا وأمريكا .

وأدى ذيوع الاشتراكية في أوروبا إلى قيام مدرسة الاشتراكيين من أتباع كارل ماركس ، فقالت بالتصور الاقتصادي أو المادي للتاريخ ودعت إليه[١] .

وكان ممن عنوا عناية كبيرة بالناحية الاقتصادية من أكابر أساتذة علم التاريخ المحدثين الذين وضعوا أصوله وقرروا مناهجه : المؤرخ البلجيكي هنري بيرين Henri Pirenne (١٨٦٢ - ١٩٣٥) ، وهو لم يعن بالناحية الاقتصادية كعامل محرك للتاريخ كما فعل ماركس ، بل كجزء من الإطار العام للحقائق التاريخية ، فكان يدرس نظم الضرائب والأسعار والتجارة وطرقها وموادها وما إلى ذلك . ومن مؤلفاته التي توضح هذه الناحية : " تاريخ المدن في العصور الوسطى " ، وهو دراسة عميقة للحياة الاقتصادية في العصور الوسطى ، ثم " محمد وشارلمان " وهو دراسة عميقة كاملة لأثر سيادة الإسلام على البحر المتوسط خلال القرن التاسع الميلادي على أحوال أوروبا الاقتصادية والاجتماعية .

ونختتم هذه الدراسة عن تطور الكتابة التاريخية في العصور الحديثة

---

(١) انظر الفصلين الأول والثالث .

بالإشارة إلى أشهر المؤرخين المعاصرين وأبعدهم أثراً في الفكر الفلسفي التاريخي في أيامنا، ألا وهو المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي Arnold Tounbee الذي يحتل مكانة سامية في التفكير المعاصر. ولا غرو فقد أحدثت آراؤه في التاريخ عامة، وفي الحضارة الغربية خاصة، ضجة كبرى قبيل الحرب العالمية الثانية.

ولقد اتجه توينبي في كتابه " دراسة التاريخ " A Study of History بالدراسات التاريخية اتجاهاً أكثر شمولاً واتساعاً ممن سبقوه من المؤرخين، واجتهد في أن يتحق مما إذا كان للتاريخ مسار معين يمكن التعرف عليه ولو على وجه التقريب، ومعنى ذلك أنه وجه اهتمامه إلى ما يسمى أحياناً " بما وراء التاريخ Metahistory، أي البحث عن القوى أو العوامل أو المناهج التي تسير التاريخ.

ويقوم كتاب توينبي السالف الذكرعلى دراسة عامة شاملة لتاريخ البشر، باعتباره أن ذلك التاريخ يتكون من سلسلة من التجارب السياسية وصل كل منها إلى قمته في صورة حضارة بذاتها. واختار توينبي من هذه الحضارات إحدى وعشرين ومضى يدرس كلاً منها دراسة عميقة شاملة على حدة، فتجمعت له بذلك ثروة من العلم التاريخي. وتلك هي الميزة الكبرى لنظرة توينبي للتاريخ، فهو يدرسه على أنه كل واحد أو تجربة واحدة تمت على مراحل أو دورات. وإذا كان من سبقوه من مفلسفي التاريخ في الغرب قد ركزوا على تاريخ الغرب بادئين بالمصريين القدماء، فالإغريق فالرومان ومنتهين بالثورة الفرنسية والقرن التاسع عشر، فجاءت دراستهم ناقصة لأنها قامت على فهم ناقص للتجربة الإنسانية العامة، فإن توينبي أدخل في اعتباره تجارب أمم الشرق جميعاً، وأنفق جهداً ضخماً في فهمها وتقديرها،

بل أدخل في اعتباره التجارب الحضارية للهنود الحمر قبل اكتشاف العالم الجديد. ومن هنا كانت دراسته إنسانية عامة وإن سيطر عليها شعوره المسيحي البروتستانتي.

ولقد تبين لتوينبي أن تاريخ كل أمة من الأمم التي اختارها موضوعاً لدراسته، إنما هو استجابة لتحدي الظروف التي وجدت فيها. ويرى أن أي مخلوق حي يجد نفسه بمجرد خلقه أمام عوامل تعمل على فنائه والقضاء عليه، فما من حيوان إلا وله أعداؤه، علاوة على ظروف المناخ والغذاء وهي ليست دائماً مواتية. ومن هنا فإن الحضارة ذاتها تحد للكائن الحي، ومواجهته لظروفه ومحاولته التغلب عليها والاستمرارفي عالم الأحياء هي استجابة لذلك التحدي. ومن ثم، فقد تنبه توينبي إلى حقيقة التحدي والاستجابة Challenge and Response التي تعتبر مفتاح نظرته العامة للتاريخ.

ومجمل هذه النظرة أن المجموعات البشرية تقودها دائماً جماعات من القادة أو أصحاب الرأي، وهؤلاء هم الذين يقودون الجماعة في استجابتها للتحدي، ويحددون نوع هذه الاستجابة بحسب ملكاتهم. فإذا كانت استجابتهم قائمة على ابتداع الوسائل التي تمكن الجماعة من التغلب على المصاعب التي تواجهها والسير إلى الأمام، كانت هذه الجماعة موفقة، وسار تاريخ الجماعة إلى الأمام. ولا تزال الأمة في صعود وتقدم ما دام قادتها محتفظين بالقدرة على الاستجابة الابتكارية أوالابتداعية Creative Re-sponse. فإذا عجزوا عن ذلك أخذ سير الجماعة كلها يتلكأ وتراخى وربما يتوقف.

ومما يجدر ذكره أن توينبي يركز على العوامل الفكرية والروحية ويضع هذه العوامل قي المقدمة، خلافاً لما كان يفعله ماركس والمدرسة المادية الإلحادية من تقديم النواحي والعوامل المادية على غيرها. ولا يرى توينبي كذلك ضيراً أو شراً في اضمحلال الحضارات لأن تجاربها لا تذهب سدى، بل تنتقل إلى غيرها، وتكون نقطة البداية لتجربة جديدة أو عنصر من عناصر قوتها. ومن هنا فهو يقول: إن التاريخ لا يعرف حضارة تزول تماماً، وإنما الذي يحصل في الغالب أن الحضارة بعد أن تتم دورتها على يد أمة من الأمم، تذبل وتجمد أو تتحجر، ثم تتفكك وتنتقل عناصرها إلى أمة أو أمم جديدة لتقوم حضارة أو حضارات جديدة.